

الباب السابع عشر

حياة الشعب (*)

الفصل الأول

منتجو الثروة

البداية في الغابة - الزراعة - التعدين - الصناعات اليدوية -
التجارة - المسال - الضرائب - المهامات - الفقر والنفى

لم تتلق تربة الهند بذور المدنية عن رضى ، فقد كان شطر عظيم منها تغطيه الغابات التي تسكنها وتلدود عنها سباع ونمور وفيلة وثعابين وغيرها من الكائنات الفردية غير الاجتماعية التي تزدرى المدنية على مذهب روسو ؛ فقام صراع حيوى لانتزاع الأرض من هذه الأعداء ، ودام الصراع متخفياً وراء ستار الحركات الاقتصادية والسياسية جميعاً ؛ فقد كان « أكبر » يصيد النور بالقرب من « مأثوره » ويمسك بالفيلة المتوحشة في أماكن كثيرة تخلو منها اليوم مخلو تاماً ؛ وقد كنت تصادف الأسد إبان العصور القيدية أينما سرت في الشمال الغربي من الهند أو في أجزائها الوسطى ، أما اليوم فلا يكاد يوجد في شبه الجزيرة كلها ؛ ولكن الثعبان وصنوف الحشرات لا تزال هناك ماضية في حربها ؛ ففي سنة ١٩٢٦ فتكت الحيوانات المفترسة من الهنود بما يقرب من ألفين (من بين هؤلاء ٨٧٥ قتلهم النور الضارية في أرجاء البلاد ، أما سم الأفاعى فقد أودى بعشرين ألفاً من الهنود ذلك العام^(١) .

(*) ينطبق التحليل الآتى إلى حد كبير جداً على الهند بعد عصر الشيدا وقبل الحكم البريطانى ؛ وليذكر القارئ أن الهند اليرم في تغير دائم ، وأن النظم والأخلاق وأساليب العيش التي كانت تميزها فيما مضى ، قد تكون في طريقها إلى الزوال اليوم .

ولما خلصت الأرض على مر الزمن من الكواسر ، تحولت إلى حقول. يزرع فيها الأرز والقطاني والذرة والخضر والفواكه ؛ فلقد رضيت الكثرة الغالبة من السكان خلال الشطر الأعظم من تاريخ الهند بعيش متواضع قوامه هذه الأغذية الطبيعية ، وكانوا يجففون اللحم والسمك والطيور لطائفتي المنبوذين والأغنياء(*) (٤) ، ولكي يجعلوا طعامهم أشهى - أوروبما أرادوا معونة أفروديت (٣) - زرعوها وأكلوا مقداراً غير مألوف في سائر البلاد من التوابل ، مثل البهار الهندي والزنجبيل والقرنفل والقرفة ، ولقد صادفت هذه التوابل تقديراً عظيماً عند الأوروبيين حتى لقد انطلقوا في البحار سعياً وراءها فوقعوا على نصف الكرة الأرضية الذي كان مجهولاً ، مع أننا جميعاً نظن أن أمريكا قد كشفت لتكون للحب مسرحاً ، كانت الأرض في العصور القيدية ملكاً للشعب في الهند (٤) ومنذ أيام « شانندرا جوبتا موريا » أصبح العرف بين الملوك أن يطالبوا لأنفسهم بملكية الأرض كلها ، ثم يوجرونها للزراع مقابل أجر وضرية يدفعان كل عام (٦) وكان الري في العادة من واجبات الحكومة ، ولقد ظل أحد السدود التي شيدها « شانندرا جوبتا » حتى سنة ١٥٠ ميلادية ، ولا تزال نشاهد آثار القنوات القديمة في شتى أرجاء الهند ، كما نشاهد آثار البحيرة التي احتفرها احتفاراً « راج سنج » - راجهوت رانا في موار - لتكون خزاناً لمياه الري (١٦٦١) وأحاطها بحائط من الممر طوله اثنا عشر ميلاً (٧) .

والظاهر أن قد كان الهنود أول شعب استنجم الذهب (٨) فيجدثنا هيرودوت (٩) والمجسطي (١٠٤) عن « النمل الكبير الذي يحفر الأرض طلباً للذهب ، وهو أصغر قليلاً في حجمه من الكلاب ؛ لكنه أكبر من الثعالب » وقد عاون هذا النمل عمال المناجم في إخراجهم للذهب ، وذلك حين ينحدر

(*) كانت فيجايا تاجار شقوداً في القاعدة ، لأن أهلها كانوا يأكلون لحوم الطير والحيوان ويحرمون منها الثيرة والأبتار) كما يأكلون العنب والقرنفل والتقط (٤) .

الرمال فيظهر الذهب الدفين (*) ولقد كانت الهند مصدراً لكثير من الذهب الذى استخدم فى إمبراطورية فاوس فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كذلك استنجمت هناك الفضة والنحاس والرصاص والقصدير والزنك والحديد .— وكان استنتاج الحديد فى وقت باكر من التاريخ إذ كان فى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد (١١) ؛ وارتقت صناعة طرق الحديد وصبه فى الهند قبل ظهورها المعروف لنا فى أوروبا بزمن طويل ؛ فمثلاً أقام « فكرياماديا » (حوالى سنة ٣٨٠ ميلادية) فى دلهى عموداً من حديد لا يزال محتفظاً ببريقه حتى اليوم ، بعد أن انقضى عليه خمسة عشر قرناً ؛ ولا يزال سر احتفاظه ببريقه من عوامل الصدأ والتآكل ، الذى يرجع إلى نوع المعدن ذاته أو إلى طريقة طرقه وصبه ، لا يزال ذلك لغزاً يحير علم المعادن الحديث (١٢) : وقد كان صهر الحديد فى أفران صغيرة توقد بالفحم من كبرى صناعات الهند قبل الغزو الأوروبى لتلك البلاد (١٣) لكن هذه الصناعة الهندية لم تصمد لمقاومة مثلتها فى أوروبا ، لأن الثورة الصناعية فى أوروبا علمتها كيف تؤدى هذه الصناعة بتفقات قليلة وعلى نطاق واسع ، ولم يعد الناس من جديد إلى استغلال الموارد المعدنية الغنية فى الهند واستكشافها إلا فى يومنا هذا (١٤) .

وظهرت زراعة القطن فى الهند فى عصر سابق لظهوره فى أى بلد آخر ، والأرجح أنه كان ينسج قماشاً فى « موهنجو دارو » (١٥) يقول هيرودوت : نص هو أقدم ما بين أيدينا من مراجع عن القطن ، يقول فى جهل ممتع : « وهناك أشجار حوشية تثمر الصوف بدل الفاكهة ، وصوفها يفوق صوف الأغنام جودة وجمالاً ؛ ويصنع الهنود ثيابهم من هذه الأشجار » (١٦) ، فلما شن الرومان حروبهم فى الشرق الأدنى ؛ عرفوا هذا « الصوف » الذى تثمره الأشجار (١٧) ؛ وروى لنا الرحالة العرب المدين زاروا الهند فى القرن التاسع بأنه « فى هذه البلاد يصنع الناس أثواباً يبلغون بها درجة من الكمال لا تصادف

(*) لسا ندرى ما قصة هذا النمل ، لكن الأرجح عندنا أن المقصود حيوانات آكلة للنمل ، لا النمل ذاته .

لها مثيلاً في أى مكان آخر - فهي من الحياكة والغزل على درجة من الرقة تسمح لك أن تستمتع الثوب من خاتم متوسط الحجم» (١٨) ، ونقل العرب في العصر الوسيط هذا الفن عن الهند ، ومن الكلمة العربية «قطن» أخذنا نحن كلمتنا الإنجليزية (١٩) وكلمة «موسلين» أطلقت بادئ ذي بدء على الغزل الرقيق الذى كان يصنع فى الموصل على غرار النماذج الهندية ، وكذلك كلمة «كالكو» (أى البسمة) أطلقت على مسماها لأن هذا الصنف من القماش جاءنا لأول مرة (١٦٣١) من مدينة كالكتا الواقعة على شواطئ الهند الجنوبية الغربية ؛ ويحدثنا «ماركوپولو» عن «جوجارات» فى سنة ١٢٩٣ ميلادية فيقول : «لأنهم هنا يطرزون بالوشى على نحو من الدقة لا يبلغه أى بلد من بلاد العالم» (٢٠) وما تزال «شيلان» كشمير و «سجاجيد» الهند شاهدة حتى اليوم على براعة النسيج الهندى من حيث حيك الديباجة وتصميم الزخارف(*) ، على أن النسيج لا يعدو أن يكون واحداً من صناعات يدوية كثيرة فى الهند ، والنساجون إن هم إلا فئة واحدة من فئات الصناعة والتجارة التى أشرفت على تنظيم الصناعة فى الهند وإخضاعها لقواعد وأصول ، ونظرت أوروبا إلى الهنود نظرتها إلى الخبراء فى كل ضروب الصناعة اليدوية تقريباً - صناعة الخشب وصناعة العاج وصناعة المعادن وتبييض القماش والصباغة والديغ وصناعة الصابون ونفخ الزجاج والبارود والصواريخ للناارية والأسمنت ؛ وغيرها (٢١) واستوردت الصين من الهند مناظر سنة ١٢٦٠ ميلادية ويصف لنا ، «برتية» الرحالة الذى جاب الهند فى القرن السابع عشر يصف لنا الهند بأنها «تطين» بأصوات الصناعة طينياً ؛ وكذلك رأى «فيتشى» سنة ١٥٨٥ أسطولا من مائة وثمانين مركباً تحمل متنوعات شتى من السلع على نهر جمنا .

(*) راجع السجادة الحمراء التى ترجع إلى القرن السابع عشر فى الهند ، واتى أهداها

مستر ج . ب مورجن لمتحف الفن العاصمى (غرفة ٣ د)

وازدهرت التجارة الداخلية ، حتى لقد كانت جوانب الطرقات .
 — وما تزال — أسواقاً للبيع والشراء ؛ أما تجارة الهند الخارجية فهي من
 القدم مثل تاريخها^(٢٢) فهناك آثار وجدناها في سومروني مصر تدل على تبادل
 تجارى بين هذين القطرين والهند ، في عهد ليس أحدث تاريخاً من سنة
 ٣٠٠٠ قبل الميلاد^(٢٣) ؛ وازدهرت التجارة بين بابل والهند عن طريق الخليج
 الفارسي بين هامى ٧٠٠ ، ٤٨٠ قبل الميلاد ؛ ومن يدرى فلعل « العاج
 والقردة والطواويس » التي جاء بها سليمان ، إنما جاءت من المورد نفسه وعن
 نفس الطريق ؛ وأخذت سفن الهند تشق البحار إلى بورما والصين في عهد
 « شاندرأ جويتا » وازدحمت أسواق الهند « الدراقيدية » بالتجار اليونان الذين
 أطلق عليهم الهنود اسم « ياغانا » (أى الأيونيين) ، وكان ذلك في القرون
 التي سبقت والتي لحقت مولد المسيح^(٢٤) ؛ وكذلك اعتمدت روما في أيام
 ترفها المادى ، على الهند في استيراد التوابل والعمطور والدهون ، ودفعت
 أثمناً عالية فيما ابتاعته من الهند من حرير ووشى وموصلى وأثواب الذهب ،
 حتى لقد اتهم « بلنى » روما بالإسراف لأنها كانت تنفق كل عام خمسة
 ملايين دولار على ما تستورده من الهند من أسباب الترف ؛ وكانت روما
 تستعين كذلك بالفهود والنور والغيلة التي تأتي بها من الهند ، على إقامة العالمية
 في المصارعة ، وتأدية طقوس القرابين عند الكولوسيوم^(٢٥) ؛ وما حاربت
 روما الحرب البارثية إلا ليظل لها طريق التجارة إلى الهند مفتوحاً ؛ ثم حدث
 في القرن السابع أن استولى العرب على فارس ومصر ، ومنذ ذلك الحين
 أخذت التجارة بين أوروبا وآسيا تمر خلال أيدي المسلمين ، ومن ثم قامت
 الحروب الصليبية ، وظهر كولمبس ، وانتعشت التجارة الخارجية من جديد
 في ظل المغول ؛ ولهذا ازدهرت بالغنى مدينة البندقية ومدينة جنوا وغيرها
 من المدن الإيطالية ، بسبب قيامها بما تقوم به الموانئ للتجارة الأوروبية مع
 الهند والشرق ؛ وإن النهضة الأوروبية لتدين للثروة التي جاءت بها هذه
 التجارة ، أكثر مما تدين للمخطوطات التي جاء بها اليونان إلى إيطاليا ؛ وكان

« لا أكبر » إدارة بحرية تشرف على بناء السفن وتنظم حركة الملاحة في المحيطات ، فاشتهرت موانئ بنغال والسند ببناء السفن ، وبلغت تلك الموانئ بهذه الصناعة حداً من الإتيقان حداً بسلاطان القسطنطينية أن يصنع سفنه هناك بدل صناعتها في الإسكندرية ، لقلّة النفقات هناك ؛ بل إن « شركة الهند الشرقية » ذاتها بنت كثيراً من سفنها في موانئ البنغال (٢٦) .

واستغرق تطور النقد الضروري لتيسير هذه التجارة عدة قرون ؛ ففي أيام بوذا كانت قطع النقد مستطيلة الشكل غليظة الصنعة ، وكانت تصدرها سلطات اقتصادية وسياسية مختلفة ، ولم تصل إلى الهند مرحلة النقد الذي تضمن الحكومة قيمته إلا في القرن الرابع قبل الميلاد ، بتأثير فارس واليونان (٢٧) فأصدر « شرشاه » قطعاً نقدية جميلة الشكل من النحاس والفضة والذهب ، جعل الروبية العملة الأساسية في أرجاء المملكة (٢٨) .

وفي عهد « أكبر » و « جهان كبير » كانت قطع النقود في الهند أرقى من مثيلاتها في أية دولة أوروبية حديثة من حيث تصميم شكلها من الوجهة الفنية ، وصفاء معدنها (٢٩) ، وكما كانت الحال في أوروبا في العصور الوسطى ، كذلك كانت في الهند في تلك العصور ، من أن نمو الصناعة والتجارة قد عاقت ههنا وهناك كراهة دينية للربا .

يقول المجسطى : « إن الهنود لا يقترضون ما لهم بالربا ولا هم يعرفون كيف يقترضون ؛ وإنه لما يجافى الأوضاع المقررة عند الهنود أن يقترف الخطأ في حق غيره أو أن يحتمل الإيذاء من غيره ، ولهذا تراهم لا يبرمون عقوداً ولا يطلبون الضمانات (٣٠) » .

فإذا ما عجز الهنود عن استغلال ما ادخره في مشروعاته التي يقوم بها بنفسه ، آثر أن يخفيه أو أن يشتري به جواهر لكونها ثروة يسهل إخفاؤها (٣١) ، ولعل عجزهم هذا عن اصطناع نظام يبسر القروض كان مما عاون « الثورة الصناعية » أن تمهيد سبيل السيطرة الأوروبية على آسيا ؛ ومع ذلك فعلى الرغم

من كراهة البراهمة للاقتراض ، أخذت عمليات الاقتراض تزداد شيئاً فشيئاً ، وكانت نسبة الربح تختلف باختلاف الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها المقترض ، من اثني عشرة إلى ستين في المائة ، وكان المتوسط في جملته عشرين في المائة (٣٢) ، ولم يكن الإفلاس يتخذ وسيلة لتصفية الديون ، وإذا مات متدين عن دين ، كان على أبنائه وأبناء أبنائه إلى الجيل السادس أن ينوبوا عنه في الوفاء بذلك الدين (٣٣) :

وفرضت ضرائب باهظة على الزراعة والتجارة تدعياً لأركان الحكومة ، وكان على الفلاح أن يتنازل من محصوله عن مقدار يتراوح بين سدسه ونصفه ، وكذلك فرضت ضرائب كثيرة على تبادل السلع وإنتاجها كما كانت الحال في أوروبا في عصورها الوسطى ، وفي أوروبا في عصرنا القائم (٣٤) ، وجاء « أكبر » فرجع ضريبة الأراضي إلى ثلث المحصول ، لكنه لقاء ذلك ألغى كل صنوف الضرائب الأخرى (٣٥) ، ولئن كانت هذه الضريبة على الأرض باهظة ، إلا أن من حسناتها أنها كانت ترتفع مع ازدهار المحصول وتهبط مع الأزمات ، وإذا ما أصيبت البلاد بمجاعة ، فقد كان الفقراء - على الأقل - يموتون دون أن تفرض عليهم الضرائب ، ولم تتخَلُ البلاد من سنى المجاعة حتى في أيام « أكبر » ذات الرخاء (١٥٩٥-٨) ، والظاهر أن مجاعة سنة ١٥٥٦ أدت بالناس إلى أكل اللحم البشرية وإلى الحراب الشامل ، إذ كانت الطرق رديئة والمواصلات بطيئة الحركة ، فلم يكن يسيراً على فائض منطقة من المناطق أن يطعم أخرى مما أصيب بالقحط .

وكما هي الحال في كل أرجاء العالم ، كان في الهند إذ ذاك تفاوت واسع بين الفقير والغنى ، ولكنه لم يبلغ ما يبلغه اليوم في الهند وأمريكا ، ففي أسفل السلم كانت هناك أقلية صغيرة من العبيد ، ويتأوهم صعوداً فئة « الشودرا » الذين لم يكونوا عبيداً بقدر ما كانوا مأجورين على عملهم ، ولو أن منزلتهم الاجتماعية كأجراء ، كانت تورث ، كما هي الحال في سائر المنازل الاجتماعية

بين الهنود ؛ وكان الفقر الذى وصفه « الأب دييوتا » (١٨٢٠)^(٣٦) نتيجة الخمسين عاماً من الفوضى السياسية ؛ ولو أن حالة الشعب فى ظل المغول كانت مزدهرة نسبياً^(٣٧) ، فلئن كانت الأجور متواضعة تتراوح بين ما يساوى ثلاث سنتات (السنت عملة أمريكية تساوى أربع مايات) وتسعاً كل يوم فى عهد « أكبر » إلا أن الأثمان كانت بخسة بما يقابل تلك الأجور القليلة ؛ فى سنة ١٦٠٠ كانت الروبية (وهى تساوى فى المتوسط ٣٢٥ سنت) تشتري ١٩٤ رطلا من القمح أو ٢٨٧ رطلا من الشعير ؛ وأما فى سنة ١٩٠١ فلم تكن الروبية تشتري إلا ٢٩ رطلا من القمح أو ٤٤ رطلا من الشعير^(٣٨) ؛ ولقد وصّفَ الحالة إنجليزي سکن الهند سنة ١٦١٦ فوصف « وفرة المواد كلها » بأنها « وفرة عظيمة جداً فى طول البلاد وعرضها » .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : « إن كل إنسان هناك فى مستطاعه أن يجد زاده من الخبز فى وفرة لا تعرف قمحاً^(٣٩) » . وقال إنجليزي آخر طاف بالهند فى القرن السابع عشر : « إن نفقاته كانت تبلغ فى المتوسط أربع سنتات كل يوم^(٤٠) » .

بلغت ثروة البلاد ذروتها فى عهد « شاندر ا جويتا موريا » و« شاه جهان » فقد ضربت الأمثال فى أرجاء العالم كله بثروة الهند فى ظل ماوك « جويتا » ؛ وصور « يوان شوانج » مدينة هندية بقوله إنها جميلة تزينها الحدائق وأحواض الماء ، ومعاهد الآداب والفنون ، « وسكانها من ذوى اليسار وبينهم أسرٌ على ثراء عظيم ؛ وتكثر بالمدينة الفاكهة والأزهار ... وللناس مظهر رقيق يلبسون أردية الحرير اللامعة ، وحديثهم ... واضح يوحى بالمعاني ، وهم منقسمون نصفين متعادلين ، نصف يتبع الأرثوذكسية فى الدين ، ونصف آخر يمت هذه الرجعية الدينية^(٤١) » ، ويقول « إلفينستون » : « إن الممالك الهندية التى ثل المسلمون عروشها كانت من الثراء بحيث كلُّ المؤرخون عن ذكر ما غنمه الغزاة هناك من جواهر هائلة المقدار ونقود كثيرة^(٤٢) ، ووصف « نيكولو » كونتى « ضفاف الكنج (حوالى سنة ١٤٢٠) فقال إنها تمتلئ بصف من

المدن الزاهرة واحدة في إثر أخرى ، وكلها حسن التخطيط غنى بالحدائق
والبيساتين والفضة والذهب والتجارة والصناعة (٤٣) ؛ وكانت خزينة «شاه جهان»
مفعمة بما فيها حتى لقد احتضرت تحت الأرض غرفتين قويتين ، سعة كل
منهما ١٥٠,٠٠٠ قدما مكعبة ، وتكاد تمتلئ بالفضة والذهب (٤٤) ويقول
« فنسنت سميث » : « إن الشواهد المعاصرة لذلك الزمن لتقطع باليقين الذي
لا يعرف الشك أن سكان الحضرة الذين كانوا يسكنون أهم المدن ، كانوا
من ذوى اليسار » (٤٥) ، ووصف الرحالة مدينتي « أجرا » و « فتحبور سكري »
بأن كلاهما أعظم من لندن وأعرض منها ثراء (٤٦) ؛ ولقد ألقى « أنكتيل
دُورون » نفسه حين طاف بأقاليم « الماهاراتا » سنة ١٧٦٠ « وسط العصر
الذهبي ببساطته وسعاده ... فقد كان الناس باسمين أقوياء في صحة جيدة » (٤٧) ،
وزار « كلايف » مرشد أباد سنة ١٧٥٩ فقال إن تلك العاصمة القديمة للبنغال
تساوى لندن التي عرفها في عصره مساحة وعدد سكان و ثراء ، وفيها من
القصور ما لا تقاس إليه قصور أوروبا . ومن الأغنياء رجال لا يدنو منهم
غنى في لندن (٤٨) ، ويقول « كلايف » : كانت الهند قطراً لا ينفد ثراؤه (٤٩) ،
ولقد حاكمه مجلس النواب على الإسراف في الأموال التي اغتصبها لنفسه ،
فدافع كلايف عن نفسه في براعة ، إذ جعل يصف الغنى الذي وجد نفسه
محاطاً به في الهند - فمدن غنية تعرض عليه أي مبالغ أراد لينجها من فوضى
النهب ، وأغنياء يفتحون له أسراها تكسب فيها الذهب والجواهر أكداساً
أكداساً ليأخذ منها ما أراد ، ثم ختم دفاعه قائلاً : « إنني في هذه اللحظة أقف
ها هنا دهشاً كيف قنعت بالقليل الذي أخذت » (٥٠) .

الفصل الثاني

تنظيم المجتمع

الملكية - القانون - تشريع مانو - تطور نظام
الطبقات - نشأة الرأمة - امتيازاتهم ونفوذهم -
واجباتهم - دفاع عن نظام الطبقات

لما كانت الطرق رديئة والمواصلات عسيرة ، كان غزو الهند أسير من حكمها ؛ فلقد حتمت طبيعة سطحها أن تظل هذه البلاد الشبيهة بأن تكون قارة بأسرها ، خليطاً من دويلات مستقلة بعضها عن بعض ، حتى جاءتها السكاك الحديدية فوصلت ما تفرق من أجزائها ؛ وفي مثل هذه الظروف لا يمكن للحكومة أن تضمن لنفسها البقاء إلا بجيش قوى ؛ ولما كان الجيش بحاجة إلى قائد مستبد الرأى ليحكمه بكلمة منه دون التأثير بفصاحة الكلام يقوله غيره في شؤون السياسة ، فإن صورة الحكومة التي تكونت في الهند هى الملكية بطبيعة الحال ؛ ولقد تمتع الناس بتقدير كبير من الحرية في ظل الأسرات الحاكمة الوطنية ، وذلك من جهة يرجع إلى الاستقلال الذاتى الذى كانت تتمتع به القرى في الريف ونقابات العمال في المدن ، كما يرجع من جهة أخرى إلى القيود التي فرضتها الطبقة الارستقراطية البرهمية على سلطة الملك (٥١) ؛ وإنك لتجد في قوانين « مانو » تعبيراً عن الأفكار الرئيسية في الهند عن الملكية ، على الرغم من أن تلك القوانين أقرب إلى التشريع الخلقى منها إلى التشريع القانونى لأوضاع الحياة البخارية ؛ فعندهم أن الملكية ينبغى أن تكون قوية الشكيمة في حياد ، وأن ترعى مصالح الناس رعاية الوالد لولده (٥٢) ؛ غير أن الحكام المسلمين كانوا أقل مبالاة من أسلافهم الهنود بهذه المنل العاليا وهذه القيود ، لأنهم كانوا أقلية فاتحة ، فأقامت حكمها صراحة على تفوقها العسكرى ؛ فيقول مؤرخ مسلم في وضوح جميل : إن

الجيش هو عدة الحكومة وعتادها (٥٣) ، وقد كان « أكبر » ؛ شذوذاً في هؤلاء الحكام المسلمين ، لأنه اعتمد قبل كل شيء على رضى الشعب لازدهاره ، تحت حكومته المستبدة فى اعتدال ورحمة ؛ ولعل حكومته فى ظروفها كانت خير حكومة يمكن قيامها ؛ وأهم عيوبها - كما أسلفنا - هو اعتمادها على شخصية الملك ، لأن السلطة العليا المرتكزة فى يد الحاكم كانت خيراً فى عهد « أكبر » لكنها كانت شراً مستطيراً فى عهد « أورنجزيب » ؛ ولما كان الحكام الأفغان والمغول قد ارتفعوا إلى ساطنهم بالعنف ، فقد كانوا دائماً عرضة إلى الهبوط عن ساطنهم بالاغتيال ، وكادت الحروب التى تُشَنُّ ليحلَّ ملك مكان آخر ، تكلف من النفقات ما تكلفه الانتخابات فى عصرنا الحديث ، ولو أن تلك الحروب لم تكن عقبة فى سبيل اطراد الحياة الاقتصادية كما هى الحال مع انتخاباتنا اليوم (*) .

لم يكن القانون فى ظل الحكام المسلمين لإلإرادة الإمبراطور أو السلطان ؛ أما فى ظل الملوك الهنود فقد كان مزيجاً مضطرباً من الأوامر الملكية ومن تقاليد القرى وقواعد الطبقات وكان الذى يتولى القضاء رئيس

(*) إن قصة اغتيال ناصر الدين لأبيه غياث الدين سلطان دلى بالسم (١٥٠١) توضح الفكرة الإسلامية عن الاستيلاء على العرش بطريقة سلمية ، وها هو ذا « جهان كير » الذى لم يدخر وسعاً فى إنزال أبيه « أكبر » عن عرشه ، يقص القصة :

« وبعد ذلك ذهبت إلى البناء الذى يحتوى على أضرحة الحكام الخالبيين ، وكان بينهما قبر ناصر الدين الذى وصم وصمة العار إلى الأبد ، فكلنا يعرف أن هذا المنكود قد ارتقى إلى العرش باغتيال أبيه ، فجرعه السم مرتين ، واستطاع أبوه فى كلتا الحالتين أن يظهر آثار السم بترقاق. كان يحمله على ذراعه ؛ وفى المرة الثالثة مزج الإبن قطرات السم بكوب من الشراب وقدمه إلى أبيه بنفسه ... ولما كان أبوه يعلم ما يبذله ابنه من جهود فى سبيل التخلص منه ، فقد نزع عن ذراعه القيمة وقذف بها أمامه ، ثم أدار وجهه فى خضوع وخشوع إلى عرش الخالق وقال : اللهم إني قد بلغت من العمر ثمانين عاماً أنفقتها فى ازدهار وسعادة لم يتمتع بمثلها ملك قبلى . ولما كانت هذه آخر لحظات حياتي ، فأضرع إليك اللهم ألا تحول بين ناصر وبين قتلى ، وأن تعد موتى أمراً من أمرك فلا تنقم لى منه » ؛ وبعد أن فاه بهذه الكلمات جرع ذلك الكوب من الشراب المسموم بجرعة واحدة وأسلم روحه إلى ربه .

ويضيف « جهان كير » الفاضل إلى ذلك قواه . « ولما ذهبت إلى قبره (أى قبر ناصر) زكته عدة ركعات » (٥٤) .

الأسرة ، أو رئيس القرية ، أو شيوخ الطبقة ، أو محكمة النقابة ، أو مدير الإقليم أو وزير الملك أو الملك نفسه (٥٥) على أن المحاكمة كانت سريعة الإجراء سريعة الحكم ، ولم تعرف البلاد نظام المحاماة في القضايا على أيدي رجال القانون إلا بعد قدوم البريطانيين (٥٦) وكان التعذيب مألوفاً في عهود الأسرات الحاكمة كلها حتى أُلغاه « فيروز شاه » (٥٧) والموت هو العقوبة في عدد كبير جداً من الجرائم ، فقد كانوا يعاقبون به سرقة المنازل وإتلاف أملاك الملك الخاصة ، أو السرقة على النطاق الذى نراه اليوم يجعل من السارق عموداً من عمدان المجتمع وكانت سائر ألوان العقاب قاسية تشمل بين أنواعها بتر الأيدي والأقدام والأنوف والآذان وفتق العين وصب الرصاص المصهور في الحلق وتهشيم عظام الأيدي والأقدام بمطرقة خشبية وإحراق الجسم بالنار وإنفاذ المسامير في الكفوف والأقدام والصدور ، وقطع أعصاب المفاصل ونشر الناس بمناشير الخشب ثم قطع جسامهم أجزاء وإنفاذ القضبان المسنونة فيهم وشيئهم على النار أحياء وقذفهم تحت أقدام الفيلة لتدقهم دقاً حتى يموتوا أو رميهم فريسة للكلاب المتوحشة الجائعة (*) (٥٨) .

ولم يكن هناك تشريع قانونى واحد يشتمل الهند بأسرها ، فكان يحل محل القانون فى شئون الحياة اليومية ما يسمونه « دارماسترا » أى النصوص العرفية التى تفصل ما للطبقات من نظم وواجبات ، والذى كتب هذه النصوص رجال من البراهمة ، كتبوها من وجهة نظر برهمية خاصة ، وأقدم هذه النصوص ما يسمى « بتشريع مانو » ، ومانو هذا هو السلف الأسطورى الذى تسلسلت عنه جماعة المانوية (أو مدرستها الفكرية) المؤلفة من براهمة بالقرب من دلهى ؛ وقد صورته هذه النصوص ابناً لله يتلقى القوانين من براهما نفسه (٥٩) وهذا التشريع مؤلف من ٢٦٨٥ بيتاً من الشعر ، كانوا يرجعونه إلى سنة ١٢٩٠ قبل الميلاد . لكن الباحثين اليوم يردونه إلى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح (٦٠)

(*) وتجده فى كتاب ديواو ص ٦٥٩ أنواعاً من العقاب أدق من هذه فى إظهار روح الشر .

ولقد أريد بهذا التشريع بادي الأمر أن يكون بمثابة الدليل أو الكتاب الصغير الذى يرشد براهمة المانوية هؤلاء إلى أوضاع السلوك الصحيح ، لكنه أخذ على التدريج يتطور فيصبح تشريعاً يحدد قواعد السلوك للمجتمع الهندى كله ، وعلى الرغم من أن ملوك المسلمين لم يعترفوا به قط ، إلا أنه اكتسب كل ما للقانون من قوة داخل حدود نظام الطبقات ، وستبين خصائص هذا التشريع إلى حد ما خلال الصفحات الآتية بما أوردناه فيها من تحليل للمجتمع الهندى وأخلاقه ، لكنه على وجه العموم كان يتمسك بمظهر نحرافى من حيث قبوله لمبدأ المحاكمة بالحنة (*) وتطبيقه تطبيقاً متمتماً لقانون العين بالعين والسن بالسن ، وإشادته مرة بعد مرة بطبقة البراهمة فى فضائلها وحقوقها ونفوذها (٣٦) وكان من تأثير هذا الكتاب أن زاد زيادة عظيمة من سيطرة نظام الطبقات على المجتمع الهندى .

كان هذا النظام الطبقي قد ازداد تزمناً وتعتمداً منذ العصر الفيدي ، لأن طبيعة النظم الاجتماعية من شأنها أن تزيد تلك النظم صلابة على مر الزمن ، ولأن اجتياح الهند - من جهة أخرى - بالشعوب الأجنبية والعقائد الخارجية قد زاد من صلابة نظام الطبقات ليقوم سداً قوياً يحول دون امتزاج دم المسلمين بدم الهنود ، فقد كان أساس الطبقات فى العصر الفيدي هو اللون ، ثم أصبح الأساس فى العصور الوسطى الهندية هو المولد ، وكان معنى التقسيم الطبقي شديداً ،

(*) « الأب ديوا » صادق على الجملة ، على الرغم من عدم عطفه على الهنود ، وهو يصور لنا الحن التى كانوا ينزلونها بالمتممين فى عصره (١٨٢٠) فيقول : « وهناك أنواع أخرى كثيرة للمحاكمة بالحن ، منها أن يغلى الزيت مزوجاً بروت البقرة وعلى المتهم أن يدس فيه ذراعه حتى المرفق ؛ ومنها محنة الثعبان ، وتفصيلها أن يوضع ثعبان من أخطر الثعابين سراً فى سلة مقلقلة ، ويضمون فى السلة خاتماً أو قطعة من النقود ، وعلى المتهم أن يخرج هذه القمامة أو ذلك الخاتم وعينه معصوبتان ؛ فإذا لم يُصَبَّ جلده بجروح فى الحالة الأولى ، أو إذا لم يعضه الثعبان فى الحالة الثانية ، عد ذلك برهان برأته القاطع » (٦٢) .

معناه من جهة وراثته الوضع الاجتماعي ، ومعناه من جهة أخرى قبول كتاب « ذارما » - أى قبول ما تفرضه التقاليد على أفراد كل طبقة من التزامات وصنوف أعمال .

وعلى رأس الطبقات وأكبر المستفيدين من نظامها ، هم الثمانية الملايين من ذكور طبقة البراهمة (٦٤) ؛ وكانت طبقة البراهمة هذه قد أصابها الضعف حيناً من الزمن بسبب نهضة البوذية في عهد « أشوكا » لكن البراهمة بما كان لهم من دأب وصبر يتصف بهما الكهنة على اختلاف أوطانهم ، مالوا للحوادث ، ثم استعادوا نفوذهم وسيادتهم في ظل ملوك « جوبتا » وما نزال نرى وثائق منذ القرن الثاني بعد الميلاد بمنح عظيمة - خصوصاً إقطاعات من الأرض - تُوهب لطبقة البراهمة (٦٥) (*) وكانت هذه المنح - شأنها شأن أملاك البراهمة كلها معفاة من الضرائب حتى جاء البريطانيون (٦٦) فتشريع مانو يحذر الملك من فرض ضريبة على برهمنى ، حتى إن نصبت كل موارد المال الأخرى ، لأن البرهمنى إذا ما ثار غضبه يستطيع أن يسحق الملك وجيشه جميعاً بتلاوة لعنات ونصوص سحرية (٦٧) ؛ ولم يكن من عادة الهنود أن يوصوا بشيء قبل موتهم فيما يختص بميراثهم ، لأن من تقاليدهم أن أملاك الأسرة لا بد أن تظل ملكاً مشاعاً للأسرة كلها وهي تنتقل انتقالاً آلياً من موقى الذكور في الأسرة إلى أحيائهم (٦٨) (**). لكن الأرببين بما يسودهم من نزعة نحو الفردية ، لم يكادوا يدخلون في الهند نظام الوصايا ، حتى رحب به البراهمة ترحيباً عظيماً ، ليتخذوا منه حيناً بعد حين وسيلة للاستيلاء على الأراضي لأغراض كهنوتية (٧٠) وكان أهم عنصر في تقديم القرابين للآلهة هو الرسوم التي تدفع للكاهن المشرف على إقامة الطقوس الخاصة بذلك ، ورأس التقوى كلها هو السخاء في دفع تلك الرسوم (٧١) وكذلك كان من موارد الكهنة الخصبية الإتيان بالمعجزات

(*) يعتقد « تود » أن بعض هذه الوثائق مزوّرة تزويراً دفعت إليه التقوى الدينية (٦٦) .

(**) لكن جماعة الدرافيديين تنقل الإرث إلى طبقات إنائهم (٦٩) .

وغير ذلك من ألوف الخرافات : فلقاء رسم معين يستطيع البرهمن أن يجعل من العاقر ولوداً ، ونظير أجر معلوم ينبيء البرهمن بما خُطَّ في لوح القدر ؛ وكان البراهمة يستخدمون رجالاً يطلبون إليهم أن يتظاهروا بالجنون وأن يعترفوا بأن هذا المس الذي أصابهم إنما جاءهم جزاء وفاقاً لما قتروا في العطاء للكهنة ؛ وكان الرجل من البراهمة يُقصد في كل حالات المرض أو المحاكات أو حالات التشاؤم ببعض النذر السيئة أو الأحلام المزعجة أو البدء في مشروع جديد ، كان الرجل من البراهمة يُقصد في كل تلك الحالات طلباً لمشورته ، وللمشير أجر مشورته (٧٢) .

وكان البراهمة يستمدون نفوذهم من احتكارهم للعلم ، فهم القائمون على صيانة التقاليد وهم الذين يدخلون على تلك التقاليد ما شاءوا من تعديل ، وهم الذين يتولون تربية النشء ، ويكتبون الأدب أو يقومون على نشر المكتوب منه ، وهم الخبراء بكتب الفيدا التي هبط بها الوحي ولا يأتيها الباطل ، ولو أنصت رجل من طبقة « الشودرا » إلى تلاوة الكتب المقدسة ، امتلأت أذناه بالرصاص المصهور (هكذا تقول كتب القانون البرهمنية) ، وإن تلاها هو انشق لسانه ، ولو حفظ شيئاً منها قُطع جسده نصفين (٧٣) . هذه النذر وأمثالها — التي لم تُوقَّع فعلاً إلا في حالات نادرة — هي التي كان يلجأ إليها الكهنة ليصونوا لأنفسهم العلم فلا يشاركونهم فيه مُعتد ؛ وهكذا أصبحت البرهمنية مذهباً خاصاً بفئة معينة تحيط نفسها بسياج ، لا تأذن لأحد من غير أفرادها أن يسهم في العلم به (٧٥) وينص تشريع مانو على أن يكون من حق البرهمن سيادته على سائر الكائنات (٧٦) على أن الفرد منهم لم يكن ل يتمتع بكل ما للبراهمة من نفوذ وامتيازات حتى ينفق في مرحلة الاستعداد أعماراً كثيرة ، وبعدئذ « يولد ولادة جديدة » وتُجرى له طقوس الخيط الثلاثي (٧٧) ، فإذا ماتم له ذلك ، أصبح منذ هذه اللحظة كائناً مقدساً ، وأصبح شخصه ومينكه مما لا يجوز عليه الاعتداء ؛ بل يذهب « مانو » في ذلك بعيداً فيقرر أن « كل

ها هو كائن في الوجود ملك البراهمة « (٧٨) » ؛ وكان لا بد لصيانة الطبقة البرهمية من مرتبة عامة وخاصة - وهي لا توهب لهم على سبيل الإحسان ، بل من باب الراجب المقدس (٧٩) وكان السخاء في العطاء للبرهمي من أسمى الواجبات للمدينة ؛ ويستطيع البرهمي الذي لا يجد ترحيباً كريماً في أحد المنازل أن يذهب عن صاحب البيت كل ما كان استحققه من جزاء عن حسناته السابقة جميعاً (٨٠) (*) ولو اقترف البرهمي كل جريمة ممكنة ، لما حَقَّ عليه القتل ، فللملك أن ينفيه ، لكن لا بد له أن يأذن بالاحتفاظ بملكه (٨٣) ومن حاول أن يضرب برهميا ، كان لزاماً عليه أن يصلى عذاب النار مائة عام ، وأما من ضرب برهمياً بالفعل ، فقد حَقَّتْ عليه الجحيم ألف عام (٨٥) وإذا اعتدى رجل من الشودرا على عفاف زوجة رجل من البراهمة ، صودرت أملاكه وحكم عليه بالخصي (٨٦) وإذا قتل رجل من الشودرا زميلاً له من الشودرا ، كان له أن يكفّر عن جريمته بعشر بقرات يهبها للبراهمة ، فإذا قتل أحداً من « الفيزيا » كانت كفارته للبراهمة مائة بقرة ، وإذا قتل أحداً من « الكشاثرية » ارتفعت كفارته إلى ألف بقرة يعطيها للبراهمة ، أما إن قتل برهمياً فلا بد من قتله ، ذلك لأن جريمة القتل عندهم لم تكن إلا بقتل برهمي (٨٧) .

وكان على البرهمي في مقابل هذه الامتيازات أعمال والتزامات كثيرة وفادحة ؛ فلم يكن يقوم بواجبات الكاهن العملية وكفى (**) ، لكنه كان إلى جانب ذلك يُعِدُّ نفسه للمهن الكتابية والتربوية والأدبية ، وكان ينتظر منه

(*) يظهر أن بعض وثائق البراهمة كان من حقهم بعض الأجور الإضافية يتقاضونها على هيئة متعة جنسية ، فبراهمة نامبوردي كانوا يتمتعون « بحق الليلة الأولى » عند كل عروس تزف في منطقة نفوذهم ، وكهنة بوشتيمارجيا في بمباي ظلوا يحتفظون بهذا الحق حتى العصور الحديثة (٨١) ولو أخذنا بما يقوله (الأب ديبوا) فإن كهنة معبد تيروباتي (في جنوب الهند للشرقي) كانوا على استعداد لمعالجة العقم في المرأة إذا ما قضت ليلة في المعبد (٨٢) .

(**) لم يكن الكهنة كلهم من البراهمة ، وأخيراً لم يكن كثير من البراهمة كهنة ؛ ففي « الأقاليم المتحدة » تجد عدداً كبيراً منهم يشتغل بالطهي .

أن يدرس القانون وأن يحفظ كتب الفيدا وكل واجب آخر من واجباته ،
إنما يأتي بعد ذلك في الأهمية (٨٩) ، ولو لم يستطع البرهمنى سوى أن يتلو كتب
الفيدا ، فإنه بذلك وحده يصبح جديراً بطمأنينة النفس بغض النظر عما قام به
غير ذلك من طقوس أو إنتاج (٩٠) ، أما إن حفظ عن ظهر قلب كتاب
« رج فيدا » ، فإنه يستطيع بعد ذلك أن يحطم العالم تحطياً دون أن يُعَدَّ ذلك
منه اقترافاً بجريرة (٩١) ، وليس من حقه أن يتزوج من خارج طبقته ، فإن
تزوج امرأة من طبقة الشودرا ، عُدَّ أبناؤه من الطبقة الدنيا ، طبقة « الباريا » ؛
وفي ذلك جاء في كتاب مانو : إن الرجل الطيب العنصر بمولده إنما يفسد
عنصره بصحبة الأذنين ، أما من كان دنيا بمولده فيستحيل أن يسمو
بصحبة الأعلين (٩٢) ، وكان على البرهمنى أن يستحم كل يوم ؛ وأن يعود
فيستحم مرة أخرى إذا حلق له حلاق من الطبقة الدنيا ؛ وعليه أن يطهر
المكان الذى أعده لنومه بروث البقر ، ولا بد له أن يراعى طقوساً دقيقة فى
مباشرته لضرورات طبيعته (٩٣) ، ومحتوم عليه أن يمتنع عن أكل الحيوان
بكافة أنواعه ، بما فى ذلك البيض ، وأن يمتنع كذلك عن أكل البصل والثوم
ونبات الفطّر ونبات الكُرّات ، ولم يكن يجوز له أى ضرب من ضروب
للشراب غير الماء ، ويشترط أن يستخرجها وأن يحملها برهمنى (٩٤) ، وتحرم
عليه صنوف الدهون والطور واللذة الحسية والجنس والغضب (٩٥) ، وإذا
مس شيئاً نجساً ، أو لمس أجنبيّاً (حتى إن كان ذلك الأجنبي هو الحاكم العام
للهند) كان لابد له من أن يطهر نفسه بالوضوء الذى تحدده الطقوس ،
ولو اقتصرت إنمّا ، كان لزاماً عليه أن يتقبل عقاباً أعنف مما يقع على مرتكب
الإثم نفسه من طبقة دنيا ؛ فمثلاً لو سرق رجل من طبقة الشودرا شيئاً ، حكم
عليه أن يدفع غرامة قدرها ثمانية أمثال قيمة الشيء المسروق ، وإذا سرق
رجل من طبقة « الفيزيا » شيئاً دفع غرامة تساوى ستة عشر مثلاً ، والرجل
من « الكشاترية » يدفع اثنين وثلاثين مثلاً ، وأما البرهمنى فيدفع غرامة

قدرها أربعة وستين مثلاً ؛ وكان يستحيل على البرهمي أن يؤذى كائناً
حياً (٩٧) .

وأخذت قوة الكهنة تزداد من جيل إلى جيل حتى أصبحوا أطول ما عرفه
التاريخ من طبقات الأرستقراطية بقاءً على وجه الدهر ، وذلك لاعتدالهم
في مراعاة هذه القواعد من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنهم وجدوا شعباً
أثقلته فلاحه الأرض فأخضعته لتقلبات الجواتي بدت لهم كأنها تقلبات أهواء
شخصية ، فشغلهم ذلك كله عن النهوض بأنفسهم من الخرافة إلى نور
العرفان ؛ فيستحيل أن تجد هذه الظواهر العجيبة في أي مكان آخر غير الهند
— وهي ظاهرة نموذجية تمثل ببطء التغير في الهند — وأعني بها أن تظل طبقة
عليا محتفظة بامتيازاتها وعلو مكانتها على مر العصور بكل ما شهدته من غزوات
وأسرى حاكمة وحكومات مدى ٢٥٠٠ عام ؛ ولا ينافسهم طول البقاء
إلا « الشاندالا » طريذة الطبقات ؛ أما فئة « الكشاترية » القديمة التي كان لها
السلطان على الميدان الفكري والسياسي في عهد بوذا ، فقد توارت بعد عصر
جويتنا ، وعلى الرغم من أن البراهمة اعترفوا بمحاربي « راجپوت » واعتبروهم
بمثابة تطور طراً على الطبقة المحاربة القديمة ، إلا أن الكشاترية — بعد سقوط
راجپوتانا — لم يلبثوا أن دالت دولتهم ، وأخيراً لم يبق إلا طائفتان كبيرتان ،
وهما طائفة البراهمة التي كانت طبقة الحكام في الهند من الناحية الاجتماعية
والفكرية ، ثم يأتي تحتم ثلاث آلاف طبقة هي في حقيقة الأمر عبارة عن
النقابات الصناعية (*) .

ولو استثنين نظام الزوجة الواحدة من حيث إساءة تطبيقه ، لحاز لك أن
تقول إن نظام الطبقات أكثر النظم الاجتماعية سوء تطبيق ، ولولا ذلك لوجدت
ما تقوله في الدفاع عن هذا النظام ، فله حسنة التصفية الاجتماعية التي تصون
ما تزعم أنه دم نقي من الشوائب ومن الانقراض اللذين ينتجان حتماً عن قك

(*) راجع الفصل التاسع ، في قسمه الرابع لتأم بنظام الطبقات في عصرنا .

قيود الإمتزاج بالزواج : وكذلك لنظام الطبقات حسنة أخرى ، وهي تدعيمه لطائفة من عادات الطعام والنظافة التي كان يتحتم على كل إنسان أن يراعيها وأن يسمو إليها صوتاً لكرامته ؛ وكذلك خلع ثوب النظام على ما بين الناس من تفاوت وفروق ، لولاه لأصبحت فوضى بغير ضابط ، ووفر على الناس هذه الحمى التي تطغى عليهم في عصرنا الحديث ، حتى الصعود في سلم المجتمع والزيادة من كسب المال ، ونظم الحياة لكل إنسان بأن حدد له تشريعاً معيناً للسلوك في طبقته ، كما أعطى أفراد الطبقة الواحدة وسائل تعينهم على الاتحاد في العمل ضد كل استغلال أو استبداد ، ثم هياً نظام الطبقات أيضاً مهرباً من الطغيان أو الدكتاتورية العسكرية اللذان لا محيص عن أحدهما بديلاً للأرستقراطية وأتاح لبلد حرم الاستقرار السياسي بسبب ما قاساه من ماث الغزوات والثورات ، أتاح له نظاماً واستقراراً في شئونه الاجتماعية والخلقية والثقافية ، لم ينافسه فيما باد آخر إلا الصين ، ولقد طرأ على الدولة ماث التغييرات الفوضوية ، لكن البراهمة احتفظوا باستقرار المجتمع بفضل نظام الطبقات ، وبهذا احتفظوا بالمدينة وازدادوا منها ونقلوها إلى الخلف ، واحتملتهم الأمة صابرة ، بل احتملتهم فخوراً بهم ، لأنه لم يغيب عن إنسان واحد أنهم في النهاية هم القوة الحاكمة التي ليس للهند عنها محيص .

الفصل الثالث

الأخلاق والزواج

« دارما » - الأطفال - زواج الأبطال - فن الحب - الرنا - الحب الشعري -
 الزواج - الأسرة - المرأة - حياتها العقلية - حقوقها - « البردة » - السوق
 (أى موت الزوجة لموت زوجها) - الأرملة

إذا ما انقضى من الهند نظام الطبقات ، تحتم أن يطرأ على الحياة الخلقية فيها طور طويل الأمد تسوده الفوضى ، لأن التشريع الخلقى في هذه البلاد قد ارتبط بنظام الطبقات ارتباطاً يكاد لا يكون له انقصاص ، والأخلاق عندهم هي « دارما » - أي أنها هي قواعد السلوك في الحياة لكل إنسان كما تحددها له طبقته ؛ فلأن تكون هندوسياً المذهب ، فليس معنى ذلك اعتناقك لعقيدة بقدر ما هو اتخاذك مكاناً معيناً في نظام الطبقات ، وقبولك « الدارما » أي الواجبات التي تترتب على مكانك ذلك ، وفق ما تقضى به التقاليد والفوانين « ولكل مكان من ذلك النظام التزاماته وقيوده وحقوقه ، ولا مندوحة للهندوسى الورع أن يسلك حياته ملتزماً تلك الالتزامات والقيود والحقوق ، واجدأً فيها قناعة الراضى بالطريق الذى مُهّد له لكى يسير فيه ، ولا يطوف بباله قط أن يجاوز حدود طبقته إلى طبقة أخرى ؛ جاء في كتاب « بها جافاد جيتا » (٩٨) « خير لك أن تؤدى عملك المقسوم لك أداء سيئاً من أن تؤدى عملاً مقسوماً لغيرك أداء حسناً » إذ « دارما » للفرد من الناس هي بمثابة النمو الطبيعى للنبوة - تحقيق مرسوم الطريق لطبيعته كامنة فيها وقضاء مكتوب عليها (٩٩) ، ولقد بلغ هذا التصور للأخلاق من الرسوخ في القديم مبلغاً جعل من المتعذر على الهندوس جميعاً ومن المستحيل على الكثرة الغالبة منهم أن ينظروا إلى أنفسهم نظرة لا تجعلهم أعضاء طبقة معينة ، تهديهم وتقيدهم قوانينها ؛ وفي ذلك يقول

مؤرخ إنجليزي : « يستحيل تصور المجتمع الهندي بغير نظام الطبقات (١٠٠) » .

وإلى جانب « النارما » الخاصة بكل طبقة على حدة ، نرى الهندوسيين يعترفون « بنارما » عامة ، أى التزامات تلزم بها جميع الطبقات ، وتتضمن قبل كل شيء احتراماً للبراهمة وتقديساً للبقرة (١٠١) ، ويأتى بعد ذلك فى الأهمية واجب النسل ، فى تشريع « مانو » مايلى (١٠٢) : « بالنسل وحده يكمل الرجل ، فهو يكمل إذا ما أصبح ثلاثة - شخصه وزوجه وابنه » ، فليس الأبناء حسنة اقتصادية لأبائهم فحسب ، يعولونهم فى شيخوختهم بغير أدنى تردد فى هذا الواجب ، بل هم إلى جانب ذلك سيمضون فى عبادة الأسرة لأسلافها ، ويقدمون لأرواح هؤلاء الأسلاف طعاماً آنأ بعد آن ، حتى لا تنفى أرواحهم إذا امتنع عنها الطعام (١٠٣) ، وبناء على ذلك لم يعرف الهنود ضبط النسل ، وعند الإجهاض جريمة تساوى فى فداحتها جريمة قتل برهمى (١٠٤) ، نعم كان يحدث أحياناً أن تقضى الأمهات على الأجنة (١٠٥) ، لكن ذلك كان نادر الوقوع ، لأن الوالد كان يسره أن ينسل الأبناء ، ويفخر إذا كان له منهم عدد كبير ، وإن حسنان الشيوخ على الصغار بين الهنود لمن أجمل ظواهر المدنية الهندية (١٠٦) .

ولم يكد الطفل عندهم يشهد النور حتى كان يأخذ أبواه فى التفكير فى زواجه ، لأن الزواج - فى النظام الهندي - إجبارى للجميع ، والرجل الأعزب طريد الطبقات ، ليس له فى المجتمع مكانة ولا اعتبار ، وكذلك بالنسبة للفتاة إن طال بها الأمد عذراء يغير زواج ، فذلك عار أى عار (١٠٧) على أن الزواج لم يكن يترك لأهواء الفرد يختار من يشاء ، أولدفة الحب تدفع العاشق إلى زواج من يهوى ، بل كان الزواج عندهم أمراً حيويماً تتم له الجاعة كلها والجنس كله ، فيستحيل أن يوكل أمره إلى العاطفة. بما لها من قصر النظر بعواقب الأمور ، أو إلى المصادفة تجمع من شاءت (١٠٨) فلا بد أن يتولى الوالدان أمر زواج الوليد قبل أن تستولى عليه حمى الرغبة

الجنسية فتعذف به إلى زواج مصيره - في نظر الهنود - إلى خيبة الرجاء واليأس المرير : ولقد أطلق « مانو » اسم « زواج الجاندارفا » على الزيجات التي تتم بانفراق الزوجين ، ووصف أمثال هؤلاء وصفاً شائناً إذ وصفهم بأنهم وليدو الشهوة ؛ نعم إن التشريع يبيح مثل هذا الزواج ، لكن الزوجين عندئذ يوشكان ألا يجدا عند الناس شيئاً من الاحترام .

ولقد أدى النضوج المبكر بين الهنود ، الذي يجعل البنت في سن الثانية عشرة مساوية لزميلتها في أمريكا في سن الرابعة عشرة ، أو الخامسة عشرة ، إلى خلق مشكلة عويصة في النظام الاجتماعي والخلقي (*) فهل الأفضل أن يدبّر الزواج بحيث يطابق سن النضوج الجنسي ، أم الأفضل أن يربأ - كما في أمريكا - حتى يبلغ الرجل نضوجه الاقتصادي ؟ والظاهر أن الحل الأول للمشكلة يؤدي إلى ضعف البنية في أبناء الأمة (١١٠) ويزيد من عدد السكان زيادة سريعة لا تتمشى مع مقتضيات الظروف ، ويضحي بالمرأة نضحية تكاد تكون تامة في سبيل النسل ؛ وأما الحل الثاني فيؤدي إلى مشكلة أخرى وهي التأخير الذي تأباه الطبيعة ، وإلى كبح الرغبة الجنسية كبحاً يؤدي إلى حبوطها ، كما يؤدي إلى الدعارة والأمراض السرية ؛ ولقد آثر الهنود لأنفسهم زواج الأطفال على اعتبار أنه أهون الشرين ، وحاولوا أن يخففوا من أخطاره بأن يجعلوا بين الزواج وبين إتمامه فترة تبقى فيها العروس مع والديها حتى يتم نضجها (١١١) ، هذا عندهم نظام اجتماعي قديم ، ومن قدمه جاءت قداسته ، وإنما نبتت جذوره بادي* ذي بدء من رغبة الناس في منع التزاوج بين الطليقات تزواجاً قد تسببه مجرد الجاذبية الجنسية العابرة (١١٢) ثم ازداد في نفوس الناس

(*) يجب أن نصيف هنا أن غاندى ينكر أن يكون هذا التكبير في النضوج قائماً على أساس جنسي ، فهو يقول : « إنى أمقت وأكره زواج الأطفال ، ويهتز كياني إن رأيت أرملة طفلة ، ولست أرى أممن في التخريف من خرافة بقول إن مناخ الهند يسبب التكبير في النضوج الجنسي ؛ فالذي يسبب النضوج قبل أوانه هو الجو الفكري والخلقي الذي يحيط بالأسرة في حياتها » (١٠٩) .

قوة فيما بعد ، بسبب أن المسلمين الغزاة ، الذين لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سييلا حتى لو لم يكونوا غزاة فاتحين ؛ كانت ديانتهم لا تحرم عليهم أن يسبوا النساء المتزوجات ليكننَّ لهم إماء (١١٣) ، وأخيراً اتخذ النظام شكله الجاهل الذي جعله تصميها عند الأبوين على وقاية ابنتهما من استثارة الذكور لحساسيتها الجنسية .

والدليل على أن هذه الحساسية عند البنت كانت مرهفة إلى حد ما ، وعلى أن الذكر قد يعهد إليه أداء وظيفته البيولوجية لأقل مشر يثير شهوته ، ظاهر في أدب العشق عند الهنود ، فكتاب « كاما سوترا » ومعناها « مذهب الشهوة » هو أشهر كتاب من بين مجموعة كبرى كلها يعبر عن اشتغال عقولهم إلى حد ملحوظ بفنون العلاقة الجنسية في صورتها الجسدية والعقلية ؛ ويؤكد لنا مؤلف الكتاب أنه كتبه « وفق المبادئ التي جاءت في الكتاب المقدس لفائدة العالم ؛ وكتابه هو فاتسياپانا ، كتبه عند ما كان يحيا حياة طالب ديني في بنارس ، ولا يعنيه شيء في الدنيا سوى التأمل في ذات الله » (١١٤) ويقول هذا الناسك : « إن من يهمل فتاة ، ظناً منه أنها أكبر حياء من أن تكون موضع صلة جنسية ، تزدره هذه الفتاة نفسها وتعهده حيواناً يجهل طبيعة ما يدور في عقل المرأة » (١١٥) ويصور لنا « فاتسياپانا » صورة جميلة لفتاة عاشقة (١١٦) لكنه يتجه بمعظم حكمته إلى تصوير فن الأبوين في التخلص منها بالزواج ، وفن الزوج في إشباع رغبات جسدها .

ولا يجوز لنا أن نفرض بأن الحساسية الجنسية عند الهنود قد انتهت بهم إلى إباحية أكثر من الحد المألوف عند غيرهم ؛ فقد أقام زواج الأطفال سداً في وجه العلاقات الجنسية السابقة للزواج ؛ والعقوبات الدينية الصارمة التي كانوا يندرون بوقوعها ليحملوا الزوجة على الوفاء لزوجها ، جعلت الزنا أصعب جداً وأندر جداً مما هو عليه في أوربا أو أمريكا ؛ وكان الزنا في الأمم الأعلى مقصوراً على المعابد ؛ ففي الأصقاع الجنوبية كانت رغبات الرجل الشهوانى

تشبعها له من كُنْ يَطلق عليهن « خادِمات الله » طائعات في ذلك أو امر السماء ، وما خادِمات الله - أو « دَقَاداس » كما يسمونهن - إلا العاهرات ؛ وفي كل معبد في « تامليل » مجموعة من « النساء المقدسات » اللاتي يستخدمن المعبد أول الأمر في الرقص والغناء أمام الأوثان ، ثم من الجائز أن يُستخدمن بعد ذلك في إمتاع الكهنة البراهمة ؛ وبعض هؤلاء النسوة - فيما يظهر - قد قصرن حياتهن على عزلة المعابد وكهنتها ، وبعضهن الآخر قد وسَّع من نطاق خدماته بحيث يشمل كل من يدفع أجراً لمتعته ، على شريطة أن يدفع لرجال الدين جزءاً من كسبهن عن هذا الطريق ، وكان كثير من زانيات المعابد - أو فتيات الرقص - يقمن بالرقص والغناء في الحفلات العامة والاجتماعات الخاصة ، على نحو ما يفعل فتيات « الجيشا » في اليابان ؛ وكان بعضهن يتعلم القراءة ، فيكن وسيلة أحاديث ثقافة في المنازل حيث لا تجد الزوجة ما يشجعها على القراءة ، ولا يسمح لها بمخالطة الأضياف ، وهؤلاء الفتيات للقارئات شبهيّات بمن كنَّ يُسمين hetairai عند اليونان : ويحدثنا نص مقدس أنه في سنة ١٠٠٤ ميلادية كان في معبد الملك الكولي « راجا راجا » في تانجور أربعائة امرأة من « خادِمات الله » ؛ وأكسب الزمان هذه العادة صبغة الجلال ، فلم ير فيها أحد ما يتنافى مع الأخلاق ، حتى إن السيدات المحترمات كنَّ آنأ بعد أن يهن ابنة إلى مهنة العُهر في المعابد ، بنفس الروح التي يوهب بها الابن إلى الكهنوت (١١٧) ، ويصف « دييوا » - في أول القرن التاسع عشر - معابد الجنوب بأنها كانت في بعض الحالات كانت « تتحول إلى بيوت للدعارة ولا شيء غير هذا ، وكانت عامة الناس تطلق على « خادِمات الله » - بغض النظر عن مهمتهن في بداية الأمر - اسم الزانيات ، ويستخدمون على هذا الأساس ؛ ولو أخذنا بقول هذا « الأب » الكهل ، الذي لم يكن أمامه ما يبرر أن يتعصب للهند فيما يكتب ، علمنا أن :

« واجباتهن الرسمية تتألف من الرقص والغناء داخل المعابد مرثين كل يوم ... وكذلك في الاحتفالات العامة كلها ؛ وهن يؤديان الرقص أداء رشيقا إلى درجة مرضية ، على الرغم من أن طريقة الرقص تثير الشهوة وليس في إشاراتهم شيء من الوقار ؛ وأما غناؤهن فيكاد كله يتألف من أشعار فاحشة تصف ما مرّ في تاريخ آلهتهم من حوادث الإباحية الجنسية » (١١٨) .

في هذه الظروف التي يسودها عهْرُ المعابد وزواج الأطفال ، لم يبق أمام ما نسميه « بالحبّ الشعري » إلا أضيق الفرص ، نعم إن التفاني المثالي الذي يديه أحد الجنسين تجاه الآخر ، له آثاره الظاهرة في الأدب الهندي — مثال ذلك ما نراه في أشعار « شاندى داس » و « چاباديفا » — لكنه في الأغلب يُتخذ رمزاً للروح تسلم زمامها لله ؛ أما في الحياة الواقعة ، وأكثر ما تظهر فيه هذه الروح هو تفاني الزوجة في زوجها تفانياً كاملاً ؛ وأحياناً ترى شعرهم الغزلي من الطراز الخيالي السامى كالذى يصوره شعراؤنا المحافظون على تقاليد الأخلاق المزمّنة من أمثال « تنسن » و « لُجِفِئُو » وأحياناً أخرى تراه من الطراز الجسدى الحسى كالذى نعرفه في عصر البصايات (١١٩) ؛ فهذا أديب منهم يوحد بين الدين والحب ، ويرى الجانبين معاً متمثلين في نشوة الدين وفي نشوة الحب ، وهذا أديب آخر يذكر قائمة سن ثلاثمائة وستين عاطفة مختلفة تملأ قلب الحب ، ويعبّد الأشكال التي رسمتها أسنانه على جسد حبيته ، أو يصف كيف أخذ يزين نهدي حبيته برسوم أزهار من معجون الصندل العبق ؛ وكذلك يصف لنا مؤلف قصتي « نالا » و « دامانانتى » في ملحمة « ماهاباراتا » آهات الحبين الحزينة وشحوبهم كأحسن ما تراه عند الشعراء الجوالين في فرنسا (١٢٠) .

لكن أمثال هذه الأهواء المتقلبة لم يُرْكَن إليها إلا ناداً في تقرير الزواج في الهند ؛ ولقد أباح « مانو » ثمانية صنوف من الزواج ، كان أدناها في التيمة الحلقية هو الزواج بالاغتصاب والزواج « بالحب » ؛ وأما الزواج بالشراء فهو

الصورة المقبولة على أنها الطريق المعقولة لتدبير الزواج بين رجل وامرأة ، فالمشرع الهندي من رأيه أن صور الزواج التي تنبئ على أسس اقتصادية هي في نهاية الأمر أسلم الصنوف عاقبة (١٢١) ، وفي أيام « دبوا » كانت العبارة الهندية التي تعني « يتزوج » ، والعبارة التي تعني « يشترى زوجة » « عبارتين مترادفتين (١٢٢) » (*) :

وأحكم الزواج زواجٌ يدبره الوالدون مراعين فيه كل قواعد الزواج من داخل أو خارج ، فالشاب ينبغي أن يتزوج داخل طبقته الاجتماعية ، لكنه يختار زوجته من خارج مجموعته العائلية (١٢٣) ، وله أن يتزوج من زوجات كثيرات لكن واحدة منهن فقط يكون لها السيادة على الأخريات ، ويشترط فيها أن تكون من طبقته الاجتماعية ، على أن الأفضل - في رأى مانو - أن يقتصر الزوج على زوجة واحدة (**)(١٢٤) وكان على الزوجة أن تحب زوجها في تفران يصبر على المكاره ، وأما الزوج فلم يكن ينتظر منه أن يبدي لزوجته حباً شعرياً ، بل حماية أبوية (١٢٦) .

كانت الأسرة الهندية من الطراز الأبوي الصميم ، فالوالد هو السيد الكامل السيادة على الزوجة والأبناء والعبيد (١٢٧) وكانت المرأة مخلوقاً جميلاً يُحسب ،

(*) يصف لنا سترابو (حوالي ٢٠ ميلادية) معتمداً على أرسطوبولس « بعض العادات الجديدة غير المألوفة في تاكسيلا فأولئك الذين يمحزون عن تزويج بناتهم بسب الفقر يسوقونهن إلى ساحة السوق وهن في عصفوان شابهن ، فيسرن على صوت الأبواق والطبول (وهي الآلات نفسها التي كانوا يستخدمونها في نداء المقاتلين إلى حومة القتال) وهذا يجمعون حشداً من الناس ، فإذا ما أقبل رجل كائناً من كان أخذ العتبات في عرض ظهورهن حتى العواتق ، وبعدئذ كين يعرضن أجزاء من الأمامية ، فإذا أعجبت واحدة منهن رجلاً ، ثم قبلت هي ذلك الرجل على شروط حتمق عليها ، فإنه يتزوج منها » (١٢٨) .

(**) لو أخذنا برأى « تود » فن للمألوف في أسرة راجبوت المالكة أن يختار الأمير مجموعة من الزوجات لكل يوم من الأيام للأسبوع تختلف عن مجموعات سائر الأيام (١٢٩) .

لكنها أخط منزلة من الرجل ؛ تقول أسطورة هندية : إن « نواشترى » المبدع الإلهي ، حين أراد في البداية أن يخلق المرأة وجد أن مواد الخلق قد نفذت كلها في صياغة الرجل ، ولم يبق لديه من العناصر الصلبة بقية ، فإزاء هذه المشكلة طفق يصوغ المرأة من القصاصات والجذاذات التي تناثرت من عمليات الخلق السابقة ، يختار قصاصة من هنا وجذاذة من هناك :

« فأخذ استدارة القمر ، وتثنى الزواحف وتعلق الخلاق وارتعاش الكلال ودقة قصبه الغاب وازدهار الزهور ونخفة أوراق الشجر وانخراط خرطوم الفيل ونظرات الغزال وتجمع النحل في خلاياه ، وهجعة أشعة الشمس المرحبة وبكاء السحاب ، وتقلب الريح وجبن الأرنب وزهو الطاووس وطرارة صدر البيغاء ، وصلابة جلمود الصخر ، وحلاوة العسل ، وقسوة النمر ، ووهيج النار الدافئ وبرودة الثلج وثرثرة أبي زريق ، وهديل الحمام ، ونفاق الكركي ووفاء الشكرافاكا ، ومزج كل هذه العناصر مزجاً صنع منه المرأة ثم وهبها للرجل » (١٣٦) لكن على الرغم من هذه العدة كلها ، لم يكن للمرأة في الهند إلا أسوأ الحظوظ ؛ فكانتها العالية التي بلغت في العصور الفيدية ، زالت عنها بتأثير نفوذ الكهنة وبفعل المثل الذي رسمه المسلمون ، فترى الروح العامة في « تشريع مانو » موجهة ضدها في عبارات تذكرنا بمرحلة أولى من مراحل اللاهوت المسيحي : « إن مصدر العار هو المرأة ، ومصدر العناء في الجهاد هو المرأة ، ومصدر الوجود الدنيوي هو المرأة ، وإذاً فإياك والمرأة » (١٣٠) وفي فقرة أخرى نقرأ : « إن المرأة لا تقبصر قدرتها على تضليل الأحمق عن جادة السبيل في هذه الحياة ، بل هي كذلك قادرة على تضليل الحكيم ، فهي تستطيع أن تمسك بزمامه وأن تخضعه لشهوته أو لغضبته » (١٣١) ولقد نص التشريع على أن المرأة طوال حياتها ينبغي أن تكون تحت إشراف الرجل فأبوها أولاً وزوجها ثانياً وابنها ثالثاً (١٣٢) ، وكانت الزوجة تخاطب زوجها في خشوع قائلة له : « يا مولاي » و « يا سيدي » بل « يا إلهي » وهي تمشي خلفه

بمسافة إن مشيا على مرأى من الناس ، وقلما يوجه إليها هو كلمة واحدة (١٣٣) وينتظر من المرأة أن تبدى إخلاصها بخدماتها في كل المواقف ، بإعدادها للطعام ، وبأكلها لما يتبقى بعد أكل زوجها وأولادها ، ويضمها لقدمي زوجها إذا حانت ساعة النوم (١٣٤) يقول مانو : « إن الزوجة الوفية ينبغي أن تحدم . . . سيدها كما لو كان لها ، وألا تأتي شيئا من شأنه أن يؤلمه ، مهما تكن حالته ، حتى إن خلا من كل الفضائل » (١٣٥) أما الزوجة التي تعصى زوجها فمألما أن تتمص روحها جسداً ابن آوى في خلقها التالي (١٣٦) .

ولم يكن نساء الهند يتلقين تعليماً — كأخواتهن في أوروبا وأمريكا قبل عصرنا هذا الحديث — إلا إن كنّ من سيدات الطبقة الراقية أوزانيات المعبد (١٣٧) . ففن القراءة كان في عرفهم لا يليق بالمرأة ؛ ذلك لأن سلطانها على الرجال لا يقوى به ، ثم هو يؤدي إلى نقص فتنها ؛ يقول « طاغور » على لسان « شيترا » في إحدى مسرحياته : « إن المرأة يسعدها أن تكون امرأة فقط — أن تلف نفسها حول قلوب الرجال بابتساماتها وتنهدياتها وخدماتها وملاطفاتها ؛ فإذا يجدى عليها العلم وجليل الأعمال (١٣٨) ؟ وليس من حقها أن تلم بكتب الشيدا (١٣٩) ، ففي المهابهاراتا : « إذا درست المرأة كتب الشيدا كانت هذه علامة الفساد في المملكة (١٤٠) » (*) ، ويروي الهبسطنى عن أيام « شاندراجوبتا » : « أن البراهمة يحولون بين زوجاتهم — ولهم زوجات كثيرات — وبين دراسة الفلسفة ؛ لأن النساء إن عرفن كيف ينظرن إلى اللذة والألم ، والحياة والموت ، نظرة فلسفية ، أصابهن مسٌّ من جنون ، أو أبيضنَ بعد ذلك أن يظلمن على خضوعهن (١٤١) » .

(*) لا يجوز لنا أن نقارن هذه الحالة بآرائنا في أوروبا وأمريكا اليوم ، بل ينبغي أن نوازنها بكراهة رجال الدين في العصور الوسطى لقراءة عامة الناس الإنجيل ، ولتربية المرأة تربية عقلية .

ثلاثة أشخاص في تشريع مانو لا يجوز لهم أن يملكوا شيئاً : الزوجة والابن والعبد ، فكل ما يكسبه هؤلاء يصبح ملكاً لسيد الأسرة (١٤٢) ؛ على أنه يجوز للزوجة أن تحتفظ بملكية المهر والمدايا التي جاءتها عند زواجها ، وكذلك يجوز لأم الأمير أن تحكم البلاد في مكان ابنها حتى يبلغ الرشد (١٤٣) ؛ ومن حق الرجل أن يطلق زوجته لخيانتها الزوجية ، لكن الزوجة لا تستطيع أن تطلق زوجها لأي سبب من الأسباب (١٤٤) ، وفي مقدور الزوج إذا ما شربت زوجته الخمر أو إذا مرضت أو إذا شقت عليه عصا الطاعة أو كانت مسرفة أو شكسة ، أن يتزوج من غيرها في أي وقت شاء (لا أن يطلقها) ؛ على أن في « التشريع » فقرات توحى بالرفق المستنير في معاملة المرأة : فلا يجوز خربهن « حتى بزهرة » ولا يجوز مراقبتهن مراقبة تجاوز الحدود في صرامتها ، لأن دهاء مكرهن عندئذ يجد سبيلا للشر ، وإذا أحببن جميل الثياب فمن الحكمة أن تشبع فيهن ما أحببن « لأن الزوجة إذا حرمت أنيق الثياب فلن تثير في صدر زوجها ميلا إليها » على حين أنه « إذا زينت الزوجة زينته بهيجة ، اكتسب للمنزل كله مسحة الجمال (١٤٥) » ، ويجب أن تخلى الطريق للمرأة كما تخليه للكحول الكهنة ، والواجب أن يطعم « الحاملات والعرائس والكواعب قبل سائر الأضياف (١٤٦) » ، ولئن فات المرأة أن تحكم باعتبارها زوجة ، فلها أن تحكم بوصفها أمّاً ، وإن كانت المرأة أمّاً لأطفال كثيرين ، استحققت عند الناس أعظم العطف والتقدير ؛ فحتى تشريع مانو الذي يؤيد سيطرة الوالد في الأسرة ينص على أن « الأم أولى بالتوقير من ألف والد (١٤٧) » .

ولا شك أن دخول الأفكار الإسلامية كان عاملاً على تدهور مكانة المرأة في الهند بعد العصر الفيدى ؛ فقد جاءت إليها عادة « البردة » (أى للاستار) — وهى عزل النساء المتزوجات — مع الفرس والمسلمين ، ولذلك فهى أقوى جذوراً في شمال البلاد منها في الجنوب ؛ والكى يجسئ الأزواج الهنود

زوجاتهم من المسلمين - وهذا عامل من عدة عوامل - فقد اصطنعوا نظام « البردة وتمسكوا به في تزمت بلغ من شدته أن المرأة المحترمة لا تستطيع أن تبدى نفسها لغير زوجها وأبنائها ، ولا يمكنها الانتقال خارج دارها إلا مستورة بقناع سميك ؛ حتى الطبيب الذى يعالجها ويجسّ نبضها ، لا مندوحة له عن أداء واجبه ذلك خلال ستار (١٤٨) ؛ وإنه لمن الخروج على القواعد الخلقية في بعض الأوساط أن تسأل عن زوجة غيرك أو أن تتحدث وأنت ضيفٌ إلى سيدات البيت الذى يضيفك » (١٤٩) .

كذلك عادة إحراق الأرامل على الكومة التى احترق فيها أزواجهن جاءت إلى الهند من خارج ، ويقول عنها « هيرودوت » إنها كانت عادة جارية بين السُّكَّيَّات القدماء وأهل تراقيا ؛ ولو كان لنا أن نصدقه في روايته ، إذن لعلمنا أن زوجات الرجل من أهل تراقيا كن يقتتلن تسابقاً على امتياز القتل على قبر الزوج (١٥٠) ، ولعل هذه الشعيرة قد هبطت إلى الهنود من عادة قديمة كادت تشمل شعوب العالم البدائية كلها ، وهى التضحية بواحدة أو أكثر من زوجات الأمير أو الغنى ، أو من خليلاته ، والتضحية معها بطائفة من عبيده ، وغير ذلك مما لا بد من تقديمه قرباناً إثر وفاته ، وذلك ليُخنى هؤلاء بالميت في الحياة الآخرة (١٥١) ؛ ويذكرها كتاب «أثار فايدا» على أنها عادة قديمة ؛ أما « رجُ فايدا » فيذكر لنا أن هذه العادة في العصر الفيدى كانت قد خفّ شأنها حتى أصبحت محصورة في مطالبة الأرملة بالرقاد على كومة الحطب التى أعدت لزوجها لحظة قبل إحراق جثته (١٥٢) .

ثم تعود قصيدة « ماهاهاراتا » فتصف هذه العادة الاجتماعية وصفاً يدل على عودتها كاملة بغير شعور من الناس بفداحة ما يفعلون ، وهى تذكر أمثلة

كثيرة لهذه العادة(*) ثم نضع للناس قاعدة عامة مؤداها أن الأرملة الطاهرة لا تتجرب أن تحيا بعد زوجها بل تراها تدخل النار فخورة بصنيعها(١٥٣) ، وكانوا في هذه المناسبات يحرقون جسد الزوجة في حفرة من الأرض ، أو يدفنونها حية ، كما كان يحدث بين قبيلة « تلوج » في الجنوب(١٥٤) ، ويروى لنا سترابو أن عادة قتل الزوجة بعد موت زوجها كانت شائعة في الهند أيام الإسكندر ، وأن قبيلة « كاثي » - وهي قبيلة تسكن البنجاب - اتخذت من هذه العادة قانوناً حتى لا تفسد زوجة لزوجها السم فتقتله(١٥٥) ولا يذكر « مانو » عن هذه العادة شيئاً ، ولقد عارضها البراهمة أول الأمر ، لكنهم عادوا لقبولها ، وأخيراً خلعوا عليها قداسة دينية تحميها من العبث ، وذلك بأن جعلوها مرتبطة بأبدية الرابطة الزوجية : فالمرأة إذا ما تزوجت رجلاً كان عليها أن تظل زوجته إلى الأبد ؛ وستعود إلى الارتباط الزوجي به في حيواته المقبلة(١٥٦) ، وهذه الملكية المطلقة من الزوج لزوجته ، اتخذت في « راجستان » صورة ما يسمونه « جوهور » وهي عادة تقضى على الرجل من أهل راجبوت ، إذا ما أصابه نوع معين من الهزيمة ، أن يضحى بزوجاته قبل أن يتقدم هو إلى الموت في ساحة القتال(١٥٧) ، وانتشرت العادة في حكم المغول انتشاراً واسعاً على الرغم من كراهية المسلمين لها ، ولقد فشل ملوك المسلمين ، حتى « أكبر » بكل نفوذه ؛ في زحزحة هذه العادة من النفوس ، وحاول « أكبر » ذات مرة أن يفنى عروساً هندية عن تقديم نفسها طعاماً للنار على كومة الحطب التي أحرقت خطيبها الميت ، وتوسل لإيها البراهمة بما يويد رجاء الملك ، لكن العروس أصرت على التضحية فلما دنت منها ألسنة اللهب ، وكان « دانيال » - ابن « أكبر » - عندئذ ماضياً في إقناعها بالعدول ، أجابته قائلة : « كفي ، كفي » ؛ وحدث كذلك لأرملة أخرى أن رفضت مثل هذه التوسلات بالإقلاع عن التضحية بنفسها ، ووضعت إصبعها في شعلة مصباح حتى التهمت النار ،

(*) تسمى « سوت » Suttee ومعناها « الزوجة المخصصة لزوجها » .

ولكونها أمسكت عن إظهار ألمها بأية علامة من علاماته ، فقد عبرت عن
ازدراؤها لأولئك الذين نصحوها بالإفلاع عن إحراق نفسها جرياً مع
الطقوس (١٨٥) وفي « فيجايانا جار » كان قتل الزوجة هنا يتخذ صورة
جمعية ، فلا يكفي فيه بقتل زوجة واحدة أو عدد قليل من زوجات الأمير
أو القائد بعد موته ، بل كان لا بد لكل زوجاته أن يتسبعنهُ إلى الموت ؛
ويروى لنا « كونتى » إن (الرايا) أو الملك قد اختار ثلاثة آلاف من
زوجاته البالغ عددهن اثني عشر ألفاً ، ليكون مفسرّبات له « على شرط أن
يحرقن أنفسهن مختارات عند موته ، وإن ذلك ليعد شرفاً عظيماً لهن » (١٥٩)
وإنه من العسير علينا أن نحكم إلى أى حد كانت الأرملة الهندية في عصور
الهند الوسطى راضية النفس عن هذه العادة بقوة التأثير الدينى والعقيدة ،
وبقوة الرجاء في أن تعود إلى الاتحاد بزوجها في الحياة الآخرة .

وأخذت « السوتى » — قتل الزوجة بعد موت زوجها — تقل شيئاً فشيئاً
كلما ازدادت الهند اتصالاً بأوروبا ، ولو أن الأرملة لم تنزل تعاني صعاباً كثيرة ؛
فما دام الزواج قد ربط المرأة بزوجها رباطاً أبدياً ، فإن زواجها مرة ثانية بعد
موت زوجها كان يعد جريمة فادحة ، ومن نتائج المحتومة أن يُحدث للزوج
اضطراباً في حيواته المقبلة ؛ وعلى ذلك كان لا بد للأرملة وفق القانون البرهمى
أن تظل بغير زواج وأن تحلق شعرها وتحيا حياتها (إذا لم تؤثر لنفسها القتل
في نار زوجها) معنية بأطفالها ومشتغلة بأعمال البر والإحسان (١٦٠) ولم يكن يحكم
على الأرملة بالفقر ، بل الأمر على عكس ذلك ، إذ كان لها الحق الأول في
أملاك زوجها (١٦١) غير أن هذه القواعد لم تجد قبولا إلا عند النساء المحافظات
على التقاليد من نساء الطبقتين العليا والوسطى — وهؤلاء نسبتهن ثلاثون في المائة
من مجموع السكان — وأما المسلمون والسيخ والطبقات الدنيا فقد أهملوا
تلك القواعد إهمالاً تاماً (١٦٢) والرأى عند الهنود هو أن هذه العذرية الثانية
التي تصطنعها الأرملة عندهم شبيهة بامتناع الراهبات في المسيحية عن الزواج

ففي كلتا الحالتين ترى طائفة من النساء يرفضن الزواج ويكرسن حياتهن
لأعمال الإحسان(*) .

(*) عند النظر في عادات الشعوب الأخرى ، يجب أن نذكر أنفسنا تذكيراً لا ينقطع بأن تقاليد الشعوب الأخرى لا يمكن الحكم عليها حكماً يقله العقل ، ودق بشريما الخلق ، يقول تود . « فالباحث السطحي النظر ، الذي يطق معياره هو على عادات الأمم كلها يرى لحالة المرأة الهندية في تدهورها رثاء يدفعه إليه عنف إنسان مسعل ، لأنه سيجد تلك المرأة قليلة الرعية في مشاركته تلك العاطفة » (١٦٣) .

راجع الفصل التاسع « الثاني والعشرين في الأصل » اتعلم ما طرأ في عصرنا من تغيرات في هذه العادات .

الفصل الرابع

آداب السلوك والمآدات والأخلاق

الاحتشام الجنسي - الصحة - الملمس - المطهر - رقة الفن
عند الهنود - سينات وحسنات - الألباب - الأعياد - الموت

إن العقل الساذج قد يصعب عليه التصور بأن هؤلاء الناس الذين قِيلوا، نظماً اجتماعية مثل زواج الأطفال وعهْرُ المعابد وقتل الروجة بعد موت زوجها ، هم كذلك غاية في رقة الحاشية والاحتشام والمجاملة ؛ فلو غضت النظر عن عدد قليل من زانيات المعابد ، لوجدت البغاء نادراً في الهند ، وألفت العفة الجنسية مصونة إلى حد يستوقف النظر ؛ يقول « دَبَّوَا » الذي لا يعطف على الهنود في كتابته : « لا بد من الاعتراف بأن آداب السلوك واحترام المعاملة الاجتماعية أوضح في قواعدها وأكثر اتباعاً لدى طبقات الهنود كلها ، حتى أدنى هذه الطبقات منزلة ، منها عند أي شعب أوربي له ما للهنود من مكانة اجتماعية » (١٦٤) ؛ فالدور الرئيسي الذي يلعبه الجنس في الحديث وفي النكات عند الغربيين ، لا تعرفه آداب السلوك بين الهنود ، فهذه الآداب تحرم تحريماً قاطعاً كل علاقة علنية بين الرجال والنساء من شأنها أن تعبر عما بينهم من ارتفاع الكلمة ، وهي تعتبر التلاصق البدني بين الجنسين في الرقص شيئاً مردولاً قبيحاً (١٦٥) ؛ وتستطيع المرأة الهندية أن تذهب خارج دارها أنى شاءت دون أن تخشى من أحد اعتداء أو إساءة (١٦٦) ؛ بل إن الوضع في عين السرقى على عكس ذلك ، إذ يرى الخطر في ذلك واقعاً كله على الجنس الآخر ، فترى « مانو » يحذر الرجال : « إن المرأة نزاعة بطبعها دائماً أن تغرى الرجل ، ومن ثم كان واجباً على الرجل ألا يجلس في عزلة مع امرأة حتى إن كانت من أقرب ذوات قرباه » ولا ينبغي لرجل أن ينظر إلى أعلى من عتقمتي فتاة عابرة (١٦٧) .

وتأتى النظافة فى منزلة بعد العبادة مباشرة ؛ فليست القواعد الصحية « بالخلق الأوحى » كما ظن أنطول فرانس ، بل هى عندهم جزء حيوى من العبادة ؛ ولقد سنّ « مانو » منذ عدة قرون تشريعاً يستلزم تهذيب البدن ، فى تعليماته مثلاً : « يجب على البرهمى أن يستحم فى الصباح الباكر وأن يزيّن جسده وينظف أسنانه ، ويغسل عينيه ويعبد الآلهة » (١٦٨) والمدارس الأهلية تجعل أولى المواد فى برامجها آداب السلوك الطيب والنظافة الشخصية ؛ فعلى الهندى ذى المكانة المحترمة أن يغسل جسده كل يوم وأن يغسل ثوبه الذى سيرتديه ، وإنه ، ليقشعر تمززاً إذا ما لبس الثوب - بغير غسل - أكثر من يوم واحد (١٦٩) ويقول سير « ولیم هُيوسر » : « إن الهنود يضربون المثل لنظافة الأجسام بين القبائل الآسيوية كلها ، بل لعلمهم يضربونه بين أجناس العالم بأسره ، ولقد أصبح وضوء الهنود يجرى مجرى الأمثال (١٧٠) (*).

وفىما يلى وصف عادات الأكل عند الهنود كما وصفها يوان شوانج منذ ألف وثلاثمائة عام :

« إنهم يندفعون إلى التطهر بدافع من أنفسهم ، لا يجبرهم عليه أحد ، فحتم عندهم أن يغتسل الآكل قبل وجبته ، ويستحيل أن تُقدّم الفئات والبقايا لوجبة أخرى ؛ ولا تستعمل أوعية الطعام لأكثر من أكلة واحدة ، فما كان منها مصنوعاً من الخزف أو من الخشب يجب رميه بعد استعماله ، وأما ما كان منها مصنوعاً من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد ، وجب إعادة صقله ؛ ولا يلبث الهنود بعد فراغهم من طعامهم أن يلوكروا مساويكهم لتنظيف أسنانهم ، ولا يلمس أحد منهم أحداً إلا إذا اغتسلوا متوضئين » (١٧٢)

(*) قال هندى كبير - هو لاجبات راي - مخاطباً أوروبا : « قبل أن تعرف الشعوب الأوروبية شيئاً من قواعد الصحة برمن طويل . وقبل أن تتبين فوائد فرجون الأسنان والإستحمام اليوى بزمن طويل ، كان الهنود بصفة عامة يتبعون العادات ، فلم يكن فى منازل لندن أحواض للاستحمام حتى عشرين سنة مضت ، وكان فرجون الأسنان من أسباب الترف الكمال (١٧١) .

فمن عادة البرهمي أن يغسل يديه وقدميه وأسنانه قبل كل وجبة وبعدها وهو يأكل بأصابعه من الطعام الذي يُقدّم على ورقة من أوراق الشجر اعتقاداً منه أنه مما يتنافى وقواعد النظافة أن يأكل مرتين من طبق واحد ، يسكن واحدة أو شوكة واحدة ، حتى إذا ما فرغ من طعامه ، غسل أسنانه سبع مرات (١٧٣) وفرجون أسنانه جديدة دائماً ، لأنها غصن شجرة يقطع لتوه لأن الهندي يعتقد أنه مما يسمى إلى سمعته أن ينظف أسنانه بفرجون من شعر الحيوان ، أو أن يستعمل الفرجون للواحد مرتين (١٧٤) ، فما أكثر السبل التي يستطيع بها الناس أن يحترقوا بعضهم بعضاً ؛ ولا ينفك الهندي يمزج ورقة من أوراق نبات الفلفل التي تصبغ الأسنان صبغة قائمة لا يرضاها لنفسه الأوروي ، بل لا يرضاها الهندي نفسه ، لكن هذه المصعقة مضافة إلى الأفيون الذي يأكله حيناً بعد حين ، يعوضانه عن امتناعه المؤلف عن تدخين التبغ واحتساء المسكرات :

في كتب القانون الهندي نصوص صريحة على ما ينبغي اتباعه من القواعد الصحية في حيض المرأة (١٧٥) ، وفي تلبية نداء الطبيعة ؛ فلن نجد من القوانين ما هو أدق في ذكر التفصيلات وأرخص في طريقة التعبير ، من تلك التي تذكر طقوس التبرز عند البراهمة (١٧٦) فالبرهمي إذا ما انحرف في سلك الكهنوت وجب ألا يستعمل في هذه الطقوس إلا يده اليسرى ، ويجب أن يستعمل الماء في تنظيف هذه الأجزاء ، وإنه ليعيد بيته نجساً إذا دخله الأوروبيون ، لأنهم يكتفون في هذه العملية بالورق (١٧٧) ، وأما المنبوذون وكثيرون من طبقة الشوادرا فهم أقل من ذلك مراعاة للدقة ، وقد يزيلون هذه الضرورة الطبيعية في أي مكان ، من جانب الطريق (١٧٨) ، ولذا فإن الأحياء التي تسكنها هذه الطوائف يُكتفى فيها من أجل الصحة العامة « بمجرور » مفتوح يشق في وسط الطريق (١٧٩) .

وفي مناخ حار كمناخ تلك البلاد ، تكون الثياب نافلة ، فكنت ترى السائلين والأولياء الصالحين عراة الأجسام ، وبذلك العرى أكلوا درجات

السُّلم الاجتماعي ؛ ولقد تهددت إحدى طوائف الجنوب - كما فعلت قبيلة دوخوبور في كندا - بالهجرة إلى مكان آخر لو اضطرت أفرادها إلى لبس الثياب (١٨٠) ، وكانت العادة في أواخر القرن الثامن عشر - على الأرجح - أن يسير الجنسان في الهند الجنوبية (ولا يزال الناس على هذه الحال في بابي) عراة فيما يعلو أوساطهم (١٨١) ، وكان الأطفال يكتسبون في الأغلب بنحزات وحاقات ؛ ومعظم الناس يمشون حفاة الأقدام ؛ وإن لبس الهندي الأصيل حذاء اتخذ من القماش ، لأنه لا يجوز تحت أي ظرف أن ينتعل حذاء من الجلد ؛ وعدد كبير من الرجال كان يكفيه من الثياب خرقة على ردفه ، فإذا أرادوا الزيادة من الغطاء لفوا أوساطهم بثوب ، وطرحوا طرفه المرسل على الكتف اليسرى ؛ وأما أهل راجبوت فكانوا يلبسون السراويل من كل لون وشكل ، وصداراً مخروماً بمنطقة في أسفله ، ولقاعاً حول الرقبة ، وخفصاً أو حذاء في القدم ، وعمامة على الرأس ؛ جاءتهم هذه العمامة مع المسلمين ، ثم أخذها الهنود ، وجعلوا من عاداتهم أن يلقوها لفتاً متقناً حول رؤوسهم في أشكال مختلفة تدل على طبقة لابسها ، لكنها في جميع الحالات تتألف من قماش حريري لا ينتهي طوله ، تظل تفكه بغير نهاية كأنه مسحور ، فقد يبلغ طول القماش في العمامة الواحدة - إذا ما نشرته - سبعين قدماً (١٨٢) ؛ ونساوهم يلبس أثواباً فضفاضة من حرير يسمونها «ساري» أو يلبس «خداراً» من نسيج البلاد ، يتلفن به على أكتافهن ، ويربطنه عند الوسط ربطاً وثيقاً ، ثم يرسلنه على القدمين ، وهن يتركن أحياناً جزءاً من أجسادهن البرونزية عارياً تحت الثديين ؛ ومن عاداتهم كذلك أن يطلوا شعورهم بالزيت ليقيمهم حرارة الشمس اللافتحة ؛ أما الرجال فيفرون شعورهم في الوسط ، ثم يجمعون أطرافه في حزمة خلف الأذن اليسرى ، وأما النساء فيضفرن بعض شعرهن حويّةً فوق الرأس ، ثم يرسلن بقية الشعر لإرسالاً ، وكثيراً ما يزيننه بالزهور ، أو يغطينه بلقاع ؛ فكان لرجالهم هندام لطيف ، ولقنيتهم جمال ، وجميعهم

خوذو قوام رائع (١٨٣) ، وكثيراً ما يكون الهندي من عامة الناس بتماشة ثوبه على ردفه أكثر في طلعتة جلالاً من دبلوماسى أوروبى كامل الثياب الرسمية .

ومن رأى « پير لوتى » : « أنه مما لا يحتمل جدالاً أن جمال الجنس الآرى يبلغ ذروة كماله ورقته في الطبقة العليا في الهند (١٨٤) » وكلا الجنسين ماهر في استخدام الدهون للتجميل . ولساؤهم يشعرون كأنما هن عراة إذا كنّ بغير حلى ؛ وعندهم أن خاتماً يوضع في جانب الأنف الأيسر يدل على الزواج ، وفي معظم الحالات ، تراهم يرسمون على الجبهة رمزاً يدل على العقيدة الدينية :

وإنه لمن العسير أن تنفذ خلال هذه الظواهر الخارجية لتصف أخلاق الهنود ، لأن كل شعب فيه خليط من فضائل وورذائل ، وترى الزائرين يختارون من هذه ما يروقهم بحيث يؤيدون وجهة نظرهم أو يزينون روايتهم بما يمتع : يقول « الأب دبوا » : « أظن أن أشبع رذائلهم هو الخيانة والخداع والغش ... وهى صفات شائعة بين الهنود جميعاً ويقيناً أنك لن تجد على الأرض شعباً يستخف بحلف اليمين أو شهادة الزور كما يستخفون (١٨٥) » : ويقول « وسترمارك » : « لقد قيل إن الكذب هو الرذيلة القومية عند الهنود » (١٨٦) ويقول ماكولى : « الهنود مخادعون متلوتون (١٨٧) » فالكذب إذا اقترب بنية حسنة كان مغتفراً في رأى « مانو » وفي مواضع الحياة العملية ؛ فمثلاً إن كان قول الصديق سيؤدى إلى موت كاهن ، فالكذب عندئذ له ما يبرره (١٨٨) لكن « يوان شوانج » يروى لنا فيقول « إنهم لا يعرفون الخداع ويرعون التزاماتهم التى أقسموا عليها ... وهم لا يعتدون على ما ليس لهم مستعملين ، ويتنازلون عن حقوقهم أكثر مما تقتضى العدالة (١٨٩) » . ويقول « أبو الفضل » الذى لا يذهب بهواه مع الهنود ، يقول عن هنود القرن السادس عشر : « إنهم متدينون ، محبون إلى النفوس ، مرحون ، محبون للعدل ، زاهدون فى الحياة ، قادرون فى التجارة ، يدعون للصديق ، ويعترفون بالاحسبيل ، ويتصفون بالوفاء

الذى لا حده له (١٩٠) . ويقول عنهم « كير هاردى » الأمين : « إن أمانتهم مضرب الأمثال ، فهم يقترضون ويقترضون ، لا تلزمهم في ذلك إلا كلمة غير مكتوبة ، ويكادون لا يعرفون عدم الوفاء للدين (١٩١) . ويقول قاض بريطانى فى الهند : « لقد عرضت أمامى مئات القضايا حيث كانت أملاك الفرد منهم وحرثته وحياته متوقفة كلها على كذبة يقولها ، ومع ذلك يأبى على نفسه الكذب (١٩٢) . فكيف لنا أن نوفق بين هذه الشهادات المتضاربة؟ يجوز أن يكون التوفيق بينها غاية فى البساطة ، وهو أن بعض الهنود أمين وبعضهم خائن :

وكذلك قل إن الهنود غاية فى القسوة وغاية فى الرقة فى آن معاً ؛ فلقد استحدثت اللغة الإنجليزية لفظة قصيرة قبيحة ، استعارتها من تلك الجمعية السرية العجيبة — التى تكاد تكون طبقة اجتماعية — جمعية « الغادرين » التى ارتكبت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر آلاف الجرائم الشذعة ، وذلك — كما قالوا — بغية تقديم هؤلاء الضحايا قرابين للإلهة « كالى » (١٩٣) ، وأما الكلمة التى استحدثتها اللغة الإنجليزية لتدل على هؤلاء الغادرين فهى Jhugs وقد كتب عنهم « فنسنت سميث » بلغة ليست غريبة عن عصرنا هذا ، فقال :

« هذه العصابات توشك ألا تخشى أحداً ، وتكاد تتمتع بحصانة تامة ... ، فلها دائماً حُماةٌ أقوياء ، ولقد هبط الشعور الخلقى عند الناس هبوطاً بحيث لا تشهد فيهم أثراً للجزع من هذه الجرائم المدبّرة التى يقترفها هؤلاء « الغادرون » . ذلك أن هذه الفئة المجرمة قد انخرطت فى مجرى أمور الحياة جزءاً منها لا يتجزأ ؛ وقبل أن يفتضح سر هذه الجمعية ، ... كان يستحيل عادة أن تظفر بدليل يثبت الجريمة على هؤلاء الغادرين ، حتى الذين اشتهروا منهم بين الناس (١٩٣) .

ورغم ذلك فالجرائم فى الهند قليلة نسبياً ، وحوادث الاعتداء نادرة ، فالعالم كله مُسجّم على أن الهنود من الوداعة بما أوشاك أن يكون جُبناً وضعفاً (١٩٤) .

فهم يجاوزون الحدود في التزلف وحسن الطوية ، وقد طحنتهم رحى الغزو والحكومات المستبدة الأجنبية زمناً امتد وطال إلى حدٍّ أفقدتهم القدرة على أن يكونوا من المقاتلين الأشداء ، إلا إذا فهمنا القتال بمعنى احتمال الألم ، عندئذ ترى لديهم من الشجاعة ما لا يشق لهم فيه غبار (١٩٥) ولعل أيشع سيناتهم عدم المبالاة والكسل ، ولو أن هاتين الصفتين في أعين الهنود ليستا من السيئات ، بل هما ضرورتان للمناخ ومواءمة أنفسهم لجوّ بلادهم ، مثل حلاوة الطبع ، آتى تتصف بها الشعوب اللاتينية ، والحمى الاقتصادية التي جنّ بها الأمريكيون والهنود حساسون ، عاطفيون ، وذوو أهواء وأصحاب خيال ؛ ولذلك تراهم أبرع في الفن والشعر منهم في الحكم والتنفيذ ، فلتن وجدتهم يستغلون بعضهم بعضاً استقلالاً فيه من الشدة والعنف ما تلمسه في المستغلين لسواهم في أي بلد من بلاد العالم ، فقد كانوا كذلك يتصفون بسخاء لا يقف عند حدٍّ ، وهم أكرم أهل الأرض للضيف ، إذا ما غضضت النظر عن الشعوب الممجبة الأولى (١٩٦) فحتى أعداؤهم لا يسعهم إلا الاعتراف بحسن مجاملتهم (١٩٧) ، وهذا هو إنجليزى سمح الأخلاق يلخص لنا تجاربه الطويلة فيعزو للطبقات العليا من أهل كلكتا « آداب السلوك المهذبة ووضوح التفكير وكماله وشعور التسامح والتمسك بالمبدأ ، مما يطبعهم بطابع السادة المهذبين في أي بلد من بلاد العالم » (١٩٨).

والعبقرية الهندية في عين الغريب عن البلاد تبدو حزينة سوداء ، لا شك في أن الهنود لم يصادفهم في الحياة كثير مما يبرر لهم المرح ، وتشير محاورات بوذا إلى أنواع كثيرة مختلفة في اللعب ، بينها لعبة شديدة الشبه جداً بلعبة الشطرنج (١٩٩) (*) ، لكن لا هذه الألعاب ولا التي أعقبها تدل على فرح

(*) الشطرنج من القدم بحيث ترى نصف الشعوب القديمة تدعيه لنفسها لكن الرأي السائد بين الباحثين في منشأ هذه اللعبة هو أنها نشأت في الهند ، وبقينا أننا نجد هناك أندم شبيه لها مما لا يحتمل الجدل (حوالي سنة ٧٥٠ ميلادية) ، وكلمة شطرنج بالإنجليزية chess جاءت اشتقاقاً من الكلمة الفارسية شاه ومعناها ملك ، وكلمة « كش الملك » بالإنجليزية Checkmate =

ومرح كاللذين تراهما في ألعاب الغربيين ، وأدخل « أكبر » لعبة « البولو » (*) في الهند في القرن السادس عشر ، التي جاءت على الأرجح من بلاد فارس ثم شقت طريقها عبر التبت إلى الصين واليابان (٢٠٢) وكان يمتنع أن يلعب لعبة « باشيسي » (وهي تسمى اليوم پارشيسي) في مربعات تحضر في أرض فناء القصر في « أجرا » ، وكان يتخذ للعبة قطعاً حية من الإماء الجميلات (٢٠٣).

وكانت الأعياد الدينية الكثيرة تخلع لونها زاهياً على حياة الشعب ، وأعظم هذه الأعياد « دورجا - بوجا » الذي يقام تكريماً للإلهة الكبرى أم الآلهات « كالي » ، فيأخذ الهنود في الاحتفال والغناء عدة أسابيع قبل قدوم ذلك العيد ، ثم يأتي يوم الحفل العظيم ، فيسير موكب تحمل فيه كل أسرة تمثالاً للإلهة ، ويتجه صوب الكنيج حيث يقفون في النهر بتلك التماثيل الصغيرة ، ثم يعود الجميع إلى ديارهم ليس على وجوههم شيء من علائم المسرح السابق .

- هي في الأصل « شاه مات » أي « مات الملك » ويسميه العرس « شطرنج » ولقد أخذوا الكلمة واللعبة كليهما من الهند عن طريق العرب ، وكانت اللعبة في الهند يطلق عليها اسم « شاطورنجا » ومعناها « الزوايا الأربع » - الفيلة والخياد والعربات الحربية والمشاة ؛ ولا يزال العرب يسمون القطعة التي هي بالإبحيرية Bishop بالفيل (٢٠٠) .

ويروى لنا الهنود أسطورة ممتعة يملكون بها نشأة اللمة ، فنقول هذه الأسطورة إنه في بداية القرن الحامس من التاريخ الميلادي ، أساء ملك هندي إلى أعوانه المحبين به من طبقتي البراهمة والكشاثرية ، وذلك بأن أهمل مشورتهم ناسياً أن حب الشعب له أرسخ دعامة لعرشه ، فأخذ برهمنى - يدعى سيسا . على نفسه أن يفتح عينى الملك الساب باخترائه لعبة تكون فيها القطعة التي تمثل الملك - رعم سموها عما عداها في الجلال والقيمة (كما هي الحال في حروب الشرق) - إن تزكت وحدها تكاد تجرد من كل حول وقوة ، ومن ثم جاءت لعبة الشطرنج ؛ ولقد أعجب الملك باللمة إعجاباً دعاه إلى أن يطلب إلى سيسا أن يحدد لنفسه ما شاء من جزاء ، فطلب سيسا في تواضع حنفة من أرر ، وإعما يحدد مقدارها بأن توضع حبة واحدة من الأرز في المربع الأول من مربعات رقعة الشطرنج ، وعددها أربعة وستون ؛ ثم يضاعف في كل مربع لاحق عدد حبات الأرز في المربع السابق . فوافق الملك من فورهِ ، لكنه سرعان ما دهش إذا رأى أن وعده ذلك يتنضى أن يدفع كل ما في ملكه ، فانهز « مسسا » هذه المرصدة السانحة ، وأشار إلى مولاه كيف يمكن للملك أن يصل عن حادة السبيل إذا أزدري رأى مستشاريه (٢٠١) .

(*) وهي من كلمة ي التبت تمطق Pulu ، وجعلتها اللهجة الهندية السالنية Pole ومعناها كرة Ball راجع علاقة الكلمة باللاتينية Pila .

وأما الاحتفال « المقدّس » الذى كانوا يقيمونه تكريماً للإلهة « فاسانتى » ، فقد كان يصطبغ بشىء من الحجون ، إذ يحملون - وهم مشاة فى صف - رموزاً للعلاقة الجنسية يهزونها هزات تمثل حركات العملية الجنسية (٢٠٥) وكان وقت الحصاد فى « شرتاناچپور » إبداناً بإباحية خلقية « حيث يطرح الرجال جانباً كل أوضاع التقاليد ، ويخلع النساء عن أنفسهن كل حياء ، ويترك للفتيات الحبل على الغارب يفعلن ما شئن بغير قيود » ؛ وهناك قبيلة تدعى « پارجانى » - وهى طبقة من الفلاحين تسكن تلال « راج محل » - تقيم احتفالات زراعية كل عام ، يباح فيه لغير المتزوجات أن ينغمسن فى علاقات جنسية حرة من كل ضابط أو نظام (٢٠٦) .

ولا شك أن فى هذه الحفلات آثاراً من السحر الزراعى القديم الذى كان مراده أن يزيد الأسر والحقول خصوبة ؛ وأما حفلات الزواج التى تتمثل فيها أكبر جاذبة فى حياة الهندى ، فقد كانت أكثر احتشاماً ، وكم من أب جلب على نفسه الخراب فى إعداد وليمة فاخرة بمناسبة زواج ابنته أو ابنه (٢٠٧) .

وفى ختام الحياة يقام حفل ختامى . هو الاحتفال بإحراق جثمان الميت ؛ فقد كانت الطريقة المألوفة فى أيام بوذا هى الطريقة الزرادشتية فى تعريض الجثة لسباع الطير ، إلا إن كان الميت من الأعلام البارزين ، فعندئذ تحرق جثته بعد موته ، على كومة من الحطب ، ثم يدفن رماده فى ضريح يحفظ ذكره (٢٠٨) لكن هذه الطريقة فى إحراق الجثة عمت الناس جميعاً فيما بعد ، حتى لترى كل ليلة حطباً يجمع ويكوى لإحراق الموتى ؛ وفى عصر « يوان شوانج » لم يكن من الحوادث النادرة أن يُقبل الكهول المتقدمون فى السن على الموت راضين ، فيطلبوا إلى أبنائهم أن يسبحوا فى زورق على نهر الكنج إلى منتصفه حيث يقذفون بأنفسهم فى نهر الخلاص (٢٠٩) . ومثل هذا الانتحار فى ظروف معينة قد صادف فى الشرق قبولاً أكثر مما صادف فى الغرب ؛ فكان مباحاً فى عهد « أكبر » للكهول والمرضى الذين لا رجاء

في شفائهم ، ولأولئك المدين ابتغوا بقديم أنفسهم قرباناً للآلهة ؛ وإن بين
الهنود آلافاً كان آخر عبادتهم أن يُجيعوا أنفسهم حتى الفناء ، أو أن يذفونوا
أنفسهم في الثلج ، أو يهبوا على أنفسهم روث البقر ثم يشعلوا فيه النار ،
أو أن يتركوا أنفسهم للتماسيح لتلهمهم عند مصب الكنج ؛ ولقد نشأ بين
البراهمة نوع من « الهارا كيرى » (وهو اسم للانتحار عند اليابانيين يأتونه
تخلصاً من عار) فينتحر المنتحر ليردّ عن نفسه أذى أو يحتج على إهانة ؛
وحدث أن فرض أحد ملوك راجهوت ضريبة على طبقة الكهنة ، فطعن عدد
كبير من أغني البراهمة أنفسهم انتحاراً بين يديه ، وهم يستنزلون عليه لعنة
هى في زعمهم أبشع اللعنات وأشدّها أثراً - ألا وهى لعنة يستنزلها كاهن وهو
يلفظ أنفاسه الأخيرة ؛ وتصح كتب التتسريع البرهمى على أن من أراد أن
ينزع روحه بيده ، عليه صيام ثلاثة أيام ، وأما من حاول الانتحار وفشل في
إنجازه فعليه أن يودى أقسى ما عرفوه من كسّارة وتوبة (٢١٠) ، ألا إن الحياة
مسرحة له مدخل واحد ومخارج عدة .